من روائع القصص العالمي
(٢)

# في مواجهة الموت

## وقصص أخرى


ترجمة
الدكتور حمادة إبراهيم




بسم الله الرحمن الرحيم

# في مواجهة الموت

وقصص أخرى

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

ص ب: ٤٢٢٤٨ الرياض ١١٥٤١

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |



## المقدمة

من سمات الدكتور حمادة إبـراهيم في الترجمـة الدّقـة في اختيـار الألفاظ ذات الـدلالة المعبّـرة تعبيراً صـادقاً، وتكـوين الجملة تكويناً عربياً له جرسه العربي ومذاقه العربي إلى درجة تبعد القارىء عن الظن بأن القصة التي يقرؤها مترجمـة ويظن أن كاتبها عربي .

وللمتـرجم ميـزتـان؟ الأولى ، اختيـار القصـة التي يقـوم بترجمتها. الثانية : الجمع بين القصص التي قام بترجمتها في كتاب واحد. ولم يأتِ هذا الاختيار جزافاً .

ففي المجموعة التي بين يدي القارىء قصص ثلاث يجمع بينها هذا الجـانب العظيم في حيـاة الإنسان، الحب، بمعنـاه الشمولي، حب الإنسان لأخيه الإنسان.

في القصـة «الحب كلام فـارغ» والقصة «السـاحرة» وهـما قصتان من إيسلندا واليـابان، نـرى ذلك النـوع من الحب بين الرجل والمرأة، حيث نرى كلاً منهما يـريد الآخـر خالصـاً له

بالزواج. ولكنا نرى في القصتين وجهين مختلفين. ففي القصة الإيسلندية نرى القس الذي يحب الفتاة «كاترين» ويطلبها للزواج. وحين لا يوافق أبوها يظل هو منتظراً بطريقة سلبية عشر سنوات دون أن يكرر المحاولة مرة أخرى، أو يفكر في وسيلة لإتمام الزواج بفتاته، وهذا ضعف بشري.

أمّا في القصة اليابانية، فالفتاة المحبة المحبوبة تتزوج من رجل آخر لأنه يحقق لها الانتقام من السوفييت الذين قتلوا أهلها في منشوريا، والوجهان كما ترى وجهان للحب مختلفان تمام الاختلاف. ولكنه المحب الصادق لا يتخلى عمن يحب، ففي القصة الإيسلندية إذا كان حب «كاترين» للقس قد منعها من قبول الزواج بغيره ممن تقدموا إليها طالبين الزواج منها، إلا أن القسّ لم يحاول أن يفعل شيئاً للحصول عليها كذلك نرى المتكلم في قصة «الساحرة» لا يقبل الزواج بمن يحب لأنها خدعت نفسها وخدعته ولم تكن صادقة مع القيم إذ تفكر تفكيراً مكيافيلياً.

في القصة «قصة لم تنشر» نجد ذلك البعد الإنساني لذكريات عانس تعيش على هذه الذكريات ولعلّها تذكرنا بقصة «المدرسة» «قاريّا فاسيليفيا» لأنطوان تشبكون» في القصة إذن حب أشمل وأعمق من حب الإنسان للآخر بقصد الزواج،

وإنما هو حب الإنسان للإنسان في ذلك الجانب الإنساني البعيد عن المصلحة المشتركة.

تصور قصة «في مواجهة الموت» للكاتب الألماني «هورست جيرانوالد» اللحظات الأخيرة لإنسان محكوم عليه بالإعدام مع ما في هذا الانتظار من قلق وانتظار وتوتر يطيل الثواني فيجعل منها دهوراً طويلة، وتأتي النهاية بصدور الأمر بالعفو وتخفيف الحكم إلى السجن. والقصة تتناول ما حدث للكاتب الروسي «ثيدورد يستويوفسكي».

تقوم قصة «ديْن قديم» على مفارقة مأساويّة؛ فقد جمع القدر اللقاء بعد عشرين عاماً بين شخصيْن أحدهما أنقذ حياة الآخر ممّا جعله مديناً له، ويتمنى لقاءه حتى يكافئه، وتتاح الفرصة، بيْد أنه تحدث ظروف سيئة في السفر بالطائرة مما يجعل الرجلين يفترقان وكأنهما لا يعرف أحدهما الآخر.

أبطال القصص إذن الحب والموت والمصادفة لا نظن أن أحداً من الباحثين ينكر قيمة الترجمة في إثراء الجش الأدبي الذي يترجم إليه. فالقصة لم تعد الآن منغلقة على نفسها في إطار لغتها بعد أن تقدمت وسائل المواصلات وتقدّمت المعرفة باللغات التي تكتب فيها القصة. وتقدمت كل وسائل التأثر والتأثير في الأدب المقارن.

ويُحمد للمترجم الدكتور حمادة إبراهيم أنه لم يترجم قصصاً من أدب واحد، ولكنه ترجم من عدة آداب: الفرنسي، الياباني، الإيسلندي، الجامايكي. وهذا بدوره يثري القصة في الأدب العربي لا شك

د. أحمد السعدني

# في مواجهة الموت*

**تأليف : هورست جرانوالد**

منذ فترة وجيزة ، تمت إجراءات حصرهم ، فكان هو سادس من في الصف ، وتطلع إلى العمد الثلاثة المثبتة في الأرض على بعد عشرين خطوة منه ، ثم حطت عيناه على الوجوه غير المكترثة ، وجوه الجنود ، ثم حدَّث نفسه قائلاً :

ـ ما هي إلا لحظات حتى أموت .

كان الرعب الذي يشعر به أمام هـذا الشيء الذي لن يلبث أن ينقض عليه، يقبض حلقه ويجعـل من تنفسه عمليـة صعبة عسيرة . وعندما تقدم إليه القس لاحظ أن شفتيه جافتان كورق البردي .

كان يخيل إليه أن صوت القس يجتاز مناطق نـائية قبـل أن يبلغه. ولم يكن يشعر نحو هذا الكلام بأدنى اهتمام، ولم يكن

يعيره سوى انتباه شارد. كانت فكرة النهاية الوشيكـة تشغل عليه فكره كله. بحيث لم يكن مستعداً لأن يفرط في جزء من نفسه في أمور خارجـة: إنه الآن بصـدد الاستئذان من الحيـاة، من حياته هو، فلم يشأ خلال الفترة الوجيزة الغالية التي تبقت له، أن يزعج نفسه بالاستماع إلى كلام أجوف لا طائل من ورائه.

وعاد بذاكرته إلى الوراء باحثاً عن شيء يأسف عليـه أو عمل يندم على إتيانه، لكن ذاكرته لم تسعفه، ولم يجد شيئاً. كل ما هناك، أنه استيقن أن حيـاته كـان من الممكن أن تكون أكثـر ثراء، وأنه كان من الممكن أن يعمل أكثر مما عمل.

وتـدفقت الذكـريات وتـزاحمت أشلاء حيـاة في نظرة منـه خاطفة. وتذكر عندما كان طالباً بالكلية الحربية ثم ضابطاً. أجل كان على حق عندما ترك الجيش، وأدار ظهره لتلك المهنة التي كانت تخنق كل ما كان يشعر به من دوافع وحوافـز. لقد أدرك هـذه الحقيقة بمنتهى السـرعة. إن الحيـاة في نظره يجب أن تكون شيئاً آخر غير تلك.

ومنـذ تلك اللحـظة المـاضيـة لم يستــطع أن يتخلص من الشعور بالقلق والسخط. كان يريد أن يمسك بالحياة. فكـان يتشبث بهـا بكل مـا أوتي من طاقـة وقوة. وكـان يقف ملتاعـاً مضطرباً أمام لجج نفسه متأملاً فوضاها تلك التي كان عليه أن

ينظمها. عندئذ بدأ يكتب. كتب صفحات وصفحات. وظل يكتب حتى نسي الجوع الذي كان يصرخ في أحشائه.

وشيئاً فشيئاً، تكشف له مصيره في وضوح وجلاء فإذا شخصيته الحقيقية تتراءى له، ويرى أمامه نوراً باهراً يأخذ ببصره وينفتح أمامه الطريق الجديد، طريقه: لقد عاهد نفسه على أن يجعل من شخصه المدافع عن جميع الأذلاء والمستضعفين على وجه الأرض. فأخذ يكتب ويكتب بلا انقطاع.

كان يضيف السطور إلى السطور، وكان كل سطر ينبثق من سيل حياته العارم الذي كان يتدفق في أعماقه. كان أشبه بالموج الذي طال احتباسه. فانتهى به الأمر إلى تحطيم كافة الحواجز التي كانت تحول دون انطلاقه.

لم يعد هناك ما يروِّعه. لا القانون ولا العرف. كان في صراع أشبه بصراع الملاك والشيطان. وكانت ساحة القتال هي نفس الرجل.

وذات يوم، أدرك أنه نال الوطر، وأنه بلغ درجة الحب المجرد عن الغرض، المستعد لجميع ألوان التضحيات، المتأهب لكافة أنواع النضال. وتساءل: أمن الممكن أن غيري من البشر يبلغون هذه المرتبة أيضاً؟ والإنسان، منذ أقدم

العصور، ألم يكن ميّالاً إلى حب المظاهر أكثر من حب الحقيقة المجردة التي تختفي وراء هذه المظاهر؟ وأي إنسان كان من الممكن أن يعترض على المظهر الخارجي للأشياء، ولكنه ما أن يحاول النيل من الروح والجوهر، ألم يكن يرد عن ذلك في الحال؟.

وجعل يبحث عن أمثله سابقة، فوجدها في المسيح، وأدرك أن الذي صنعوه به كان عملية لا يمكن تجنبها، ومع ذلك فقد واصل السير في الطريق التي خطها لنفسه.

وذات يوم طلب إليه الناقد (بيلينسكي) أن يمر عليه في مكتبه. وكان هذا الناقد قد قرأ مخطوطاته. وكان صاحبنا يتوقع منه كل سخاء، من هذا الناقد المعروف بذكائه وتشدده وقسوته ..كان يتوقع كل سخاء إلاَّ ما حدث فعلاً.

- «آه.. هذا أنت يا صديقي.. هل أنت مدرك تماماً ما كتبت؟ أمن الممكن أن تفهم كل هذا وأنت في سن العشرين؟ إن (ديفرسكين) الموظف، بطل روايتك، قد تحول إلى آلة متحركة. ولقد قطع في هذا الطريق شوطاً كبيراً بحيث إنه، وهو في قمة المذلة والمسكنة، لا يجرؤ على مجرد (التفكير) في أنه بائس، ويعتبر أبسط الشكوى دليلاً على التفكير الحر المنطلق والوعي الثوري، إن القارىء لا يمكن أن يتعاطف مع مثل هذا الإنسان. بل إن كل ما يشعر به

نحوه لا يعدو البغض والاشمئزاز.

( لقد وضعت يدك على الداء من أول وهلة ونفذت إلى قلب المشكلة. يجب أن تظل كما أنت صريحاً نحو نفسك، ولسوف تصبح كاتباً عظيماً ) .

تذكر المحكوم عليه بالإعدام كلام الناقد الشهير، فأحس بآخر شعور بالعزة والافتخار، فساعده ذلك في التغلب على الخوف والفزع. وأقسم أن يظل صريحاً نحو نفسه حتى أمام الموت، وألا ينهار وألا يخضع. كانت تلك رسالته، وكانت تلك الرسالة تستحق أن يضحي من أجلها بحياته. لم يكن يكره شيئاً أكثر من كرهه للكذب المبتذل الذي يخوض فيه الغالبية العظمى من البشر. ولقد قبض الاشمئزاز حلقه لمجرد التفكير في ذلك.

لم يكن يجهل الجريمة التي قادته إلى هذه الساحة التي ينتظر فيها الإعدام، صباح يوم قارس البرد من أيام ديسمبر ( كانون الأول ) . فقد جرؤ على الثورة ضد نظام يـ-صرف في البشر وكأنهم قطيع من الأبقار.

وحاول أن يتصور أنه بعد دقيقتين أو ثلاث، سيصبح شيئاً هامداً لا حياة فيه. كان من العسير عليه أن يصدق ذلك. وتساءل: .

- ( إلام يصير حالي بعد إعدامي؟ هل هناك حقاً ما يستحق المعرفة فيما وراء هذا العالم؟ ) .

وكان لا يزال يميز الجنود الذين كانوا يشكلون ثلاث فرق صغيرة أمام العمد . ومن بعيد جداً، كان يبلغه صوت القس مترنماً بالصلاة والدعاء، ومن قريب جداً، كان يبلغه صوت الضابط ملقياً بالأوامر إلى الجنود. كان صوته عالياً رنَّاناً، ومع ذلك فلم يكن واضحاً مفهوماً.

وعلى مسافة مائتي متر تقريباً، كان يلمح أمامه إحدى الكنائس. وكانت قبة الكنيسة مغطاة بطبقة ذهبية اللون تعكس أشعة الشمس. فطفق يتأملها في إمعان واهتمام كأنما هذه الأشعة تمثل فجر حياة لن يلبث أن يسفر من أجله ، أو كأنما عليه أن يذوب فيها بعد لحظة من الزمن .

وصادف صعوبة شديدة، إذ حاول أن يصرف نظره عنها. وعندما حطَّت عينه على الجنود، نزلت في قلبه سكينة كبرى، فكرة واحدة هي التي كانت تضايقه: ( آه لو لم يكن مقضياً عليَّ بالموت بعد لحظة، لو اردُّ إلى حريتي، فما أعظم ما كنت سأقوم به من أعمال. . آه لو حدث ذلك، لجعلت من كل لحظة قرناً من الزمن، ولأحصيت كل دقيقة من عمري كما يحصي البخيل أمواله ، ولوعيت قيمتها وأدركت عظمتها ، فلا أضيع منها ذرة واحدة ) .

لو قدر له أن يعيش. . لو قدر له أن يعيش لاستطاع أن يقرأ من جديد ( بوخين )، و( جوجول )، وسائر الكتَّاب الآخرين الذين كان يحبهم، ولاستطاع أن يحتسي نبيذ القوقاز، ويتسكع في شوارع (بيترسبورج )، وعلى رصيف ( نيفا )، ولاستطاع أن يقرأ على وجوه الناس سر بؤسهم وعذابهم. . لو قدر له أن يعيش، لعاش معهم ولتحدث طويلاً مع السكارى وبائعي الكتب القديمة، ولعلم عندئذ أنه موجود وأنه يحتسي الحياة في كل أشكالها وألوانها كما يحتسي الظمآن كوباً من الماء البارد.

الحياة! أن يكون الإنسان على قيد الحياة أفضل بكثير من أن يرقد جثة هامدة بلا حراك ولا فائدة تحت التراب. . . أن يفتح عيناً شغوفة على الأحداث والناس، وينفعل بالمشكلات ويشارك الناس أفراحهم وأتراحهم، ومخاوفهم وآلامهم ودموعهم وضحكاتهم، وأن يستشعر حرارة الشمس ولسعة البرد، هذه هي الحياة. .

وما دام الإنسان على قيد الحياة، فهو يستطيع أن يترنم باسم محبَّب إلى قلبه فيقول مثلاً: ( أمي ) ويستطيع أن ينطق باسم شقيق له أو شقيقة، أو صديق له أو قريب. ويمكنه، إذا شعر بالضيق أن يخرج إلى الطرقات. ويمكنه أن يضحك لنكتة، أو يداعب شعر امرأة جميلة، ويتناول أصابعها الجميلة في راحة يده، ويرفع رأسها ويجبرها على التطلع إليه. . . ما دام على

قيد الحياة يستطيع أن . . يستطيع أن يسقي الأزهـار، وينصت إلى طنين النحل، ويستلقي فوق العشب، ويرقد على ظهره، ويتأمل مسيرة السحب في السماء، ويكتشف لها أشكالاً جديدة لا حصر لها. . . .

إن الإنسان، وهو على قيد الحياة، ، يشعر بأنه يعضد سائر البشـر ويسـانـدهم، ويـأخـذ على عـاتقـه مسؤوليـة أعمـالهم ويشاركهم تبعة جرائمهم لأنه مثلهم، لأنه يكون مـذنباً عنـدما يكـونون مـذنبين، لأنه يتشبث بـالحياة مثلهم. أجـل يستطيـع الإنسان أن يفعل أي شيء، عندما يشعـر بالـرغبة في ذلـك. المهم أن يدرك تمام الأدراك مـدى إمكاناته، ولا يضيع فرصة واحدة للعمل.

وعنـدما تصـور كل مـا سيسلبه المـوت إياه، انتـابه غضب شديد، وقال لنفسه: ( آه! ليتهم يسـرعون بـإعدامي )، ولكن سرعان ما روعته هذه الفكرة.

وضغط قبضتيه في قوة خارقة بحيث إن أظافره آلمت راحـة الكفين. واضطر إلى بذل جهد كبير لكي يكتم غضبه. كان هو سادس من الصف، إذن فالثلاثة المـاثلون عن يمينه ( كـان لا يجرؤ على النظر إليهم ) سيموتون أولاً.

وأرهف السمع، فبلغت أذنه الطقطقة التي تحدثهـا أحذيـة

الجنود فوق البلاط الذي يبس بتأثير الجليد، فالتفت إلى الجهة التي كانت تنبعث منها الضوضاء فرأى جنوداً أربعة يجتازون الميدان ويتجهون نحو المذنبين، في إبطاء وهدوء، وبلا أدنى انفعال أو تأثير.

وما إن أصبحوا على بعد خطوة منهم، حتى توقفوا، وصاح واحد منهم قائلاً: ( رقم واحد واثنين وثلاثة. . . أخرجوا من الصف ) كان يتحدث من أنفه، وكان صوته كريهاً بغيضاً.

وغامت نظرته قليلاً عندما رأى الصف يقصر. وسار الرجال الثلاثة يحوطهم الجنود الأربعة، كان يتبعهم بعينيه، فشعر كأنما يجرون أقدامهم جراً وعندئذ أدرك الخوف المريع الذي يستولي عليهم، ولقد شعر هو أيضاً بالخوف أمام عجز هذه الأجسام التي لن يلبث الرصاص أن يغوص فيها دون أدنى مقاومة أو عائق.

وحدس ما يدور بخلدهم من خواطر واستيقن أن هؤلاء الرجال يلعنون جلَّادهم الذي خصهم بأن يكونوا أول الراحلين، كما استيقن أنهم مستعدون لأن يهبوا كل ما يملكون على هذه الأرض في مقابل أن يكونوا في الطرف الآخر من الصف.

ولقد اضطرب لهذا المشهد أيما اضطراب، فأغمض عينيه

وطـأطـأ رأسـه، واجتهـد في أن ينسى مـا رآه. وفي خيـالـه المشحوذ، ارتسمت شخصيات أخرى، وإطارات أخـرى. لم تكن في بـادىء الأمر سـوى أشكال غـامضـة. وشيئـاً فشيئـاً، جعلت ملامحها تتضح وتفرض عليه نفسها. وشعر بألم عميق عندما تذكر أن الوقت لم يسعفه ليقول للبشرية الجزء العاشر من رسالته.

واستعـرض جميع الكتب التي كـان سيكتبها، لـو توفـر له الوقت لذلك. وعندما أدرك أنه لن يستطيع أن يكتب شيئاً، وأنه لن يستطيع أن يعبِّر عما يشعر به من حب وعطف نحو البشر، وأن المشـاعر التي يفيض بهـا قلبه والأفكـار التي تملأ رأسـه سترحل معـه إلى العدم، عنـدئذ ضغط على فكيـه من فـرط الألم.

ماذا سيقول التاريخ عن هذا الطالب الذي دفعه الفقـر إلى الانصـراف عن الدراسـة وقتل عجـوز مرابيـة بالبلطة؟ ومن ذا سيتحدث عما اعتمل في نفسه من تبكيت وصراع عندما تساءل عما إذا كان قد فعل فعلته كأي قاتل مجرم، أو أنه في ذلك كان ينتمي إلى أشبـاه نابليـون، إلى تلك الصفوة التي تمتلك حق التصرف في أرواح البشر ومقدراتهم.

ومن ذا سيصـور العواطف التي تعتمـل في أعماق المقـامر

عندما يسمع طقطقة الكرة فوق طاولـة اللعب، وعندمـا يقبض باصبعه في حركة محمومة على أول مكسب لـه . . ثم عندمـا تتوالى المبالغ المدفوعة وتختفي تباعاً، فيزداد عناء المقامر، ثم لا يبقى له شيء سوى تلك الكرة التي تتراقص فوق الطاولـة، وعندما ينتهي ويغادر مائدة اللعب، ولا يبقى له شيء حتى ولا ذرة من نفسه . فيخرج والابتسامة على شفتيه ويحيي الحارس تحية عابرة قائلاً له : ( إلى اللقاء غداً ) .

ومن ذا سيهتم بمصير الأطفال الذين ألقي بهم بلا رحمة ولا شفقة في عالم تعد الدماء الجارية فيه مشهداً معتاداً، عالم لا تعد الرذيلة فيه مصدر خجل أو عار، وإنما تنتشر فيه وتستشري في حرية تامة، عالم يصبح فيه كل شخص في هـذيان هستيـري طالباً شيئاً من الإنسانية، وهو لا يدري أن الزجاجة قـد فرغت وليس هناك من يتفضل بمثلهـا . وما من شـك في أن كل فـرد يريد أن ينهل من الزجاجة مرة بعد مرة . ولكن عندما يُطلب إليه أن يهب شيئاً من ذاته، فإن الأمر يختلف .

كان يعرف أنه لا يمكن أن يرى الأشياء كما تراها الجماهير . لقـد شاءت لـه الأقـدار أن يـظل إلى الأبـد يـوجـه إلى نفسـه الأسئلة ، وأن يظل إلى الأبد يجتهد في محاولة الإجابة عنها . هل كان ينتظره غير ذلك ؟ ومع ذلك كان سيرضى ويسعد بجني

الثمار في غير هذا المكان الذي ينتظر فيه الاعدام رمياً بالرصاص.

وانبثقت في رأسه رؤيا زاهرة. . . رأى نفسه عندما كان فتى جميلاً أشبه بالأمير. . . كان نبيلاً كريماً. وكان يقدم للعالم الدليل على طيبة قلبه وحبه الغامر وإيمانه العميق بعظمة الإنسان. كان ينتمي إلى عائلة كريمة، وكان الوحل الذي يتمرغ فيه بقية الناس من حوله لا ينال من طهره وعفته. أجل. . كان ذلك الفتى سيلقي الاحتقار والازدراء من أترابه، لكنه كان سيظل يعطف عليهم. بل إن وجوده نفسه في نظر الجماهير كان أمراً شاذاً، كان بالنسبة لها أشبه بتبكيت حي، فاكتفت بإدانته وحكمت عليه بالإعدام. كان كل من يصادفه يضعه أمام التجربة، عندما وجد الناس أنه يقدم لهم الحب بدلاً من السوط، أشاحوا عنه ووصفوه بالأبله المعتوه.

كان المصير الأليم الذي يتعرض له هذا الفتى يسبيه ويفتنه بحيث إنه أنساه لمدى لحظة كل ما كان حوله. وقال يحدِّث نفسه: ( أجل، هذا موضوع كنت أحب ان أعالجه بالقلم )

وبلغته صرخة مروعة انتزعته من أفكاره. وما إن رُدَّ إلى واقعه الحاضر، حتى شعر بأن العرق كان يتصبب من جبينه وصدغيه ورقبته، وأن حبات العرق كانت تتسرب إلى ظهره من فتحة الياقة.

واضـطر إلى فتح عينيـه على سعتهما، لكنـه شعر بسعـادة غـامرة عنـدما وجـد أن ستاراً رقيقـاً معلقاً أمـامه يحجب عنـه المشهد الذي كان يجري في الميدان على بعد خطوات منه، ومع ذلك فلم يحول عينيه.

وعندئذ شـاهد الجنـود وهم يقبضون على ذراعي المـذنب الأول، ويجذبانهما خلف ظهره في قسوة ووحشية. ثم يقيدون قبضتيـه تقييداً محكمـاً، ثم يضغطون ويضغـطون حتى اضطر الجسم الـذي أضناه الألم والإرهـاب إلى أن ينتصب معتدلاً. ولاح أن الرجل ينصب قامته عـزة وافتخاراً. ولقـد تكرر هـذا المشهد ثلاث مرات. ورأى أن الجنود يعصبون أعين المذنبين ثم يسحبـونهم إلى العمد فيقيـدونهم إليها في إحكـام شـديـد بحيث لا يستطيعون أن يتزحزحوا قيد أنملة.

وحـاول أن يتذكـر ملامـح وجوههم التي رآهـا أمامـه منـذ لحـظات، لكنه لم يتمكن من ذلـك. وانتهى به الأمـر إلى ان أخفى جبهته بذراعه، لأنه لم يعد يحتمـل هـذا الانتظار، ولم يعد يطيق عجزه هذا أمام النهاية الوشيكة.

حتى ذلك اليوم، لم يكن فكر في أنواع الموت المختلفة. ولقد فات الأوان الأن. فلن يسعفه الوقت لذلك، والرصاصـة التي كتب لها أن تضع حداً لنهايته قد صهرت منذ وقت طويل. كـان يراهـا داخل الجـراب الجلدي الذي يعلقـه الجنود على

صدورهم، قطعة صغيرة من المعدن، مستديرة مصقولة في مهارة وبراعة.

وكم من عناء تجشمه صانع الرصاصة ليكون لها هذا البريق وكم كانت متعة الجندي وهو يتأملها أمام عينيه. . لكن ذلك الجهد كان بلا طائل. ومتعة الجندي كانت فارغة. فبالنسبة له هو الذي سيتلقى الرصاصة في صدره، فإن الأمر سيان: أن تكون الرصاصة صدئة أو لامعة.

وعلى حين فجأة، سمع شخصاً يسعل، وشاهد الضابط الذي قام قبل ربع ساعة بقراءة حكم الإعدام، يبتعد عن الجنود ويشير بيده إلى القس بالابتعاد عن العمد.

وفي الحال سمع صوتاً، صوتاً كان يبدو وأنه يخرج من عالم الأموات يأمر الجنود بالاستعداد. وأخذت الطبول تدق خفيفاً في بادىء الأمر، ثم تشتد شيئاً فشيئاً فاعتقد أن رأسه لن يلبث أن ينفجر .

ووسط ضوضاء الطبول، استطاع أن يميز الصوت الذي تحدثه البنادق عند تعميرها. عندئذ أيقن أنه بالنسبة لهؤلاء الرجال المقيدين إلى العمد، فإن اللحظة الأخيرة قد حانت. وانتظر سماع الطلقة الأولى.

وإذا بضوضاء الطبول تصم الآذان. وفي هدوء حوَّل رأسه،

خشية أن يصاب بالجنون لو طال أمد هذا الانتظار.

وخيل له ان الضابط ينحني على أحد الجنود وخيل لـه أنه رأى شفتيه تتحركان، لكنه لم يميز أي صوت. وشاهد الجندي ينـدفع نحـو المـذنبين المقيـدين إلى العمـد. لكنـه أدرك أن الهلوسة تعبث به وأنه يجب أن يثوب إلى رشده بأي ثمن. ليته فقط يستطيع أن يكف عن سماع ضوضاء الطبول.

مـاذا؟ هل سينهـار تمامـاً، في اللحـظة التي يـواجـه فيهـا الموت، هو الذي طالما أراد أن يحافظ حتى النهاية على رباطة جأشه، وأن يظهر للناس جميعاً أنه يستطيع أن يثبـت أنه رجل حر، حتى أمام الموت ؟ .

ورأى الجندي وهو ينـزع العصابـة من فوق عيني المـذنب الأول. ثم الثاني وأخيراً الثالث وبعد ذلك حل القيد الذي كان يربطهم في العمد والقيود التي كـانت في معاصمهم، ودفعهم أمامه، واجتاز بهم الساحـة في اتجاه مضـاد، ثم عاد الـرجال الثلاثة إلى أماكنهم في الصف.

لم يعـد يحاول أن يفهم ومكث جـامـداً في مكـانـه وقـد حلَّت محل عقله فتحة كبيرة سوداء. وكان قد فقد القدرة على الاندهاش، بل حتى على التألم. ولم يفكر حتى في الصياح أو الهـروب وهو لا يزال قادراً على ذلك.

وفجأة كفت الطبول عن الدق، وكأنها فقدت كل قوتها. ولم تطلق أية رصاصة. الأمر الذي لم يزد من دهشته .

ثم سمع اسمه متبوعاً بكلمات لم يفهم منها شيئاً لحظة سماعها. وعندما تحرك طابور المذنبين، وانتظم في صفين، وأدار ظهره للميدان، واتخذ طريقه إلى السجن. استعاد صاحبنا جزءاً من عقله. وفيما كانوا يمهلون السير لينخرطوا في منعطف الطريق، لمح رأس أول المذنبين، ذلك الذي كتب له أن يكون أول الراحلين، والذي كان يسير أمامه. عندئذ كفت ركبتاه عن الارتعاش . وإذا به يستعيد الكلمات التي سمعها منذ قليل فكانت : ( فيودور ميكايلو فتشي ) ينال عفو القيصر ويقضي أربع سنوات في سيبيريا .

( * ) هذه القصة نسجت حول ما حدث للكاتب الروسي « دوستويفسكي » وقد صدر العفو عنه في اللحظات التي كان ينتظر فيها تنفيذ حكم الإعدام فيه وفي بعض أقرانه .

## قصة لم تنشر

تأليف : مارجي فانسون

هـا نحن أولاء، في نهايـة يـوم من أيـام الصيف الجميلة، جـالسون أمـام النوافـذ المفتوحـة نثرثـر، ولا أرى شيئاً أقصـه عليكم أفضـل من قصة عم زوجتي والسيـدة العجوز صـاحبـة المنزل الذي كنت أسكنه.

ليست هذه أول مرة، أيها الأصدقاء، نجتمع فيها على هذا النحو، ساعة الغروب، ويجب أن تعترفوا أنني أنا دائماً الذي يبدأ بالحديث. صحيح أن لسـاني يأكلني بـلا انقطاع، وأنني أشعر برغبة عارمة في أن أسرد عليكم قصصي الغريبة. تذكروا كل تلك القصص التي رويتها لكم! مليئة بالحركة، والإثارة، والمغـامـرات . كنت أقـدمهـا لكم كـما وصلتني . . . دون تضخيم في الأحـداث، ودون محـاولـة للتخفيف منهـا، أو تلطيفهـا أو صقلها. كنت أقـدمها لكم ثمـاراً ناضجـة مفعمـة

بالعصارة، داخل قشور يابسة، بالضبط كما كنتم تحبونها. وعندما كان يحدث، في بعض الحكايات العنيفة بنوع خاص، أن أتجاوز القدر، كنتم تنهالون عليَّ بضوضائكم وصخبكم. يا للمناقشات الحامية التي كانت تدور بيننا عندئذٍ! كنا نتقاذف فوق الرؤوس بكلمات أحسن تصويبها، كلمات وعرة مثل الجرانيت مدببة مثل السهام، أو محملة بالشرر، كلمات مستديرة، مصقولة كالحصى الذي تصقله مياه البحر، ويستمر في التدحرج بلا مجهود... وكلمات أخرى أشبه بحجارة هينة، تتفتت وتستحيل تراباً. وكنا نلزم الصمت... في وقفات لطيفة مريحة... وبعد ذلك كان كل منكم يعود إلى منزله، محتداً بعض الشيء، متعباً بعض الشيء، ولكنه يكون باسماً سعيداً.

ولكنني اليوم أشعر باكتئاب. لا تسخروا مني، أيها الأصدقاء فهذا جزء من طبيعتي. واسألوا زوجتي. لقد اجتهدت دائماً في ألا أقصّ القصة نفسها في حضرتها مرتين، فإنني أخشى أن أضايقها. ومع ذلك فهي تعرف هذه القصة التي سأرويها لكم الآن. فيبدو أن جو هذا المنزل قد أصبح مشبعاً بهذه القصة. هل اقتراب الخريف هو الذي يذكرني بها؟ أم الزهرة التي تذوي على غصنها، أم الغبار الذي يدكن كلَّ ورقة، الغبار رمز الأشياء المنسية المهملة؟ أم نهاية النهار،

ساعة الغروب؟ لست أدري.

إن القصة التي سأرويها لكم قصة قديمة جداً. كنت، في ذلك العصر، لا أزال شاباً خالي البال، قليل المال والمتاع، أتنقل هنا وهناك بحثاً عن الآفاق الجديدة والمناظر الجذابة التي تصلح للتصوير. ويجب أن أخبركم بأنني كنت أدرس فن التصوير. وذات يوم اجتزت مدينة صغيرة، خلبني سحرها الغريب القديم لدرجة أنني قررت ألا أبحث أبعد من ذلك، وأن أستقر فيها. واستطعت ببحث سريع أن أهتدي إلى مسكن رخيص. وقد عاهدت نفسي أن أشكر السيدة الشابة التي عثرت بفضلها على ذلك المسكن، وبالطبع نسيت عهدي.

كان المسكن يختفي وراء جدار ضخم من الحجارة لدرجة أنني كدت أن أمر من أمامه دون أن أراه. كنت أسرع في السير، وكانت الريح تتوغل في معطفي الذي كانت ثناياه تطرقع مثل الغسيل على الحبل، وكانت ثمة أوراق من جميع الألوان تتطاير أمامي على طول الطرق الضيقة. ولم تكن تلك الطرق سوى شوارع ضيقة متعرجة متقلبة. وكانت وهي مغطاة بالأوراق التي تلمع مثل الصدف، أشبه شيء بالأفاعي الضخمة التي تنام تحت شمس الخريف.

ودفعت الباب الحديدي الذي انفتح في سكون. ولقد

دهشت لذلك. فقد كنت أتوقع صرير مقاومة كما لو كنت أعرف خصائص ذلك البيت الذي كنت أراه لأول مرة في حياتي.

ولمحت بعض سلال الزهور وعرفت من بينها الداليا واللؤلؤ والأقحوان ذي الشعور الذهبية، ورأيت وسط هذه الزهور بستانيًّا عجوزاً، أحناه عبء السنين، كان يتأمل إنتاجه بعين المندهش.

وتحدثت إليه، ولكنه لم يجبني، وشعرت إلى أي حد كان يشكل جزءاً من ذلك المنزل الذي كان يعيش منطوياً على نفسه، معزولاً عن العالم.

وأقبلت خادمة حييّه ففتحت الباب وطلبت إليَّ أن أنتظر في الردهة، وكانت فسيحة، ولكنها كانت مزدحمة لدرجة أن المرء لا يستطيع أن يجتازها إلا بعد سلسلة من اللف والدوران. وعلى الجدران علقت بعض الطيور المحنطة التي كانت تنشر أجنحتها المعفرة وكأنها في تأهب للطيران. وخلف بعض الواجهات الزجاجية، لمحت أسماكاً محنطة ترمقني بعيونها الزجاجية الضخمة. وكان خشب الخزانات الثقيلة المصقول، وجلد الكراسي القاتم يلمعان خفيفاً في شبه الظلمة التي كانت تشمل المكان، وكانت توجد بعض الزهور الصناعية التي زال رونق ألوانها، موضوعة في إناء زهر قديم فوق كرسي معوج

القوائم، وكان يلوح أن تلك الزهور موجودة في ذلك المكان منذ عشرات السنين. وكانت هناك بعض المرايا القديمة تشغل الفراغ القليل الموجود. وفوق ذلك كله يحلق هيكل ثريا هائلة.

كنت أفتح عينيّ على سعتهما، وسرعان ما لمحت وسط تلك الأشياء القديمة، بعض السيوف التي أكلها الصدأ، ولم أستبعد أن يخرج واحد من أهل الدار مهرولاً إلى تلك الأسلحة لكي يدافع عن المنزل الغريب ضد أحد المعتدين.

ولكن كان قد جاء من يستدعيني، وبينما أنا مأخوذ بالطابع الغريب الذي يلف تلك الردهة التي مكثت فيها وحدي عدة لحظات، دخلت الحجرة على عجل، وكانت حجرة استقبال صغيرة أدخلتني إليها الخادمة الشابة. وظننت عندئذٍ أن حُلمي قد توقف عند ذلك الحد، لأن حجرة الاستقبال لم تكن تتشابه في شيء مع الردهة الخرافية. بل على العكس كانت مؤثثة بطريقة تنم عن البساطة والتقتير. ولكنني ما أن تخلصت من وطأة الظلمة التي كانت تغمر قطع الأثاث، حتى لمحت عجوزاً طاعنة في السن جالسة بالقرب من معزف حالك السواد، تثقله تماثيل من الخزف ران عليها الدهر. أما الشيء الذي أثار انتباهي في بادىء الأمر، فقد كان ذلك الانسجام التام بين العجوز وبين المكان الذي كانت تعيش فيه، لقد كانت، مثل

السيوف أو الطيور المعفرة، تمثل جزءاً من الكل. وبينما كنت أتقدم نحوها، أدركت أنها قعيدة، فقد كان ثمة عكازان ثقيلان يستندان إلى كرسيها الموسد.

وقالت في لهجة مقدمة أو ديباجة:

- إن زيارتك تثبت لي أن العالم الخارجي موجود بالفعل.

ولقد رسخت هذه الجملة في ذهني، لأنني كنت أشعر حقاً أنني في نظرها رمزاً للعالم، ولم أدخر وسعاً في استخدام كل مصادر الخيال عندي لكي أؤكد لديها هذه الفكرة الثمينة. وما زلت بها حتى أقمت في المنزل بعد حديث طويل مع العجوز التي بلغت من الكبر عتياً.

الآنسة «سيبيل جينيدين» لم تكن متزوجة. ومنذ خمسة وعشرين عاماً لم تطأ قدمها خارج الدار. وعندما أصبحت قعيدة على أثر حادث ألم بها، اعتكفت في منزلها ولم يعد للعالم الخارجي وجود بالنسبة لها. ولم يكن يدخل المنزل الرمادي الساكن أيَّ خبر، بل ولا حتى صدى الحياة التي كانت تجري وراء الجدار الحجري. إن كل ما كانت ترتديه، من ثياب وحلي عنى باختيارها، والطريقة التي كانت تسوّي بها شعرها، كان ذلك كله يرجع إلى العصر الذي قررت فيه ألا تطل برأسها خارج الدار.

ولم تكن صاحبة البيت لتخلو من العيوب. معاذ الله. فقد

كانت امرأة عنيدة، مدَّعية، مسرفة في الشح - مع أن الإيجار لم يزد مليماً واحداً منذ خمسة وعشرين عاماً. ومع ذلك فإنني لم أكن أنظر إليها فقط بعين المصور، في تلك الإضاءة الغريبة. وكنت أكثر من زيارتها، ولكنني نادراً ما كنت أصورها. ولقد كانت تنشر حولها جواً من شأنه أن يفرض الاحترام، ويصرف الضحك أو البكاء. وكانت الآنسة «سيبيل» سريعة الغضب وكانت تسعى إلى العراك معي، وترسل إلي بخطابات عدائية، وكانت تحاول أن تتجاهلني، وتتخذ هيئة الملكة المهانة، وهي تجلس في ركنها، متحصنة بصمت يتسم بالاستهجان. ولكنها كانت تعبس بوجهها وتغير سِحْنتها بشكل يثير الضحك، حينئذٍ كنت أغفر لها كل شيء.

وفي كل مرة كانت تدعوني فيها لزيارتها، كانت تنتقي من صوان ملابسها العتيق أروع ما فيه من زينة، وتصبغ خديها بطريقة تنم عن تعاجب بوجهها، وتتوسل إلي أن أبقى بعض الوقت. كانت، على حد تعبيرهم تمثل جمهوراً ممتازاً. وكانت تظل متعلقة بشفتي، لاهثة، دون أن تنبث بكلمة، خشية أن تفسد سحر الخيال. وما أن كانت القصة تنتهي حتى تبدو أكثر حزناً وأكثر بعداً مما كانت. وفي بعض الأحيان كانت تجلس إلى المعزف وتعزف من أجلي أنا وحدي، ولكنني كنت أفضل أن أستمع إليها وهي تروي لي قصصها الخاصة. ولقد

كانت لديها قصة عن كل تمثال من التماثيل التي كانت تغطي المعـزف، والتي كنت أطلق عليها: «يـوميات الآنسـة جيندين الخـزفية» وكـانت قصصها ذات وقـع غـريب، وسحـر عجيب لـزمني فترة طـويلة بعد أن تـركت صديقتي العجـوز، بل إنـه يحدث لي في بعض الأحيان أن أتناول لوحةً وأترجم عليها تلك الصور الحافلة بالألوان التي كانت تولدها في خيالي.

كان لدى الآنسة «جيندين» «حـديقتها السـرية» التي كـانت تمنع دخولها بدافع الغيرة. لهذا كانت ترفض دائماً أن تـروي لي قصة حارس لَيْليٍّ صغير من الخزف كان يبدو أنه يحتل في قلبها مكانة كبيرة. فقـد كنت أراها تشحب من فـرط الانفعال بمجرد أن تمسَّ أصابعها ذلك التمثال الصغير، وكانت تتجشَّم مشقة كبيرة لكي تستعيد حالتهـا الطبيعيـة، وكان وجـودي في حجـرة الاستقبـال، في تلك الأثنـاء، لا يؤدِّي إلاَّ إلى زيـادة اضطرابها وارتباكها. كم كنت أراها مؤثرة، حينذاك! ثم تضغط على شفتيها، ويستغلق وجهها تماماً.

في الـطابق العلوي الـذي لا تستـطيـع أن تبلغـه الآنسـة «جيندين» كان يسكن سيدان متقدمان في السن. وأعتقد تماماً أنهـا لم ترهمـا على الإطلاق. ولقـد صادفتهمـا أنا مـرتين أو ثلاث مرات على السلم. فوجدتهما رجلين لا غبار عليهما ولا يثيران الاهتمام.

وكانت الخادمة الشابة لا تنفك ترتدي ثوباً أسود لا يعاب ومئزراً أبيض منشيًّا، لأن الآنسة «جيندين» ما كانت لتسمح أبداً بأدنى إهمال في زينتها، وكانت الخادمة تخصص وقتاً قصيراً للغاية للعناية بالحجرتين اللتين يشغلهما المستأجران. وكانت تقضي جل نهارها جالسة فوق كرسي في المطبخ الذي يفضي إلى مخزن كدست فيه برطمانات الفواكه والخضر المحفوظة، وأكياس صغيرة بيضاء من القماش تحتوي على خبز جاف. فلقد كان يبدو أن صاحبة الدار العجوز تخشى بصفة خاصة وقوع مجاعة وكانت تحتاط لذلك.

وذات يوم، لاحظت أن جو المنزل المقفول المشبع بالعفار وطابع المدينة العتيق أصبحا بالنسبة لي شيئاً لا يطاق. إن كل ما كان في الماضي يجذب خيالي أصبح الآن يثير أعصابي. ربما كان هذا حال أجمل الأشياء. ولما رأيت أنني لم أغير الجو منذ عهد بعيد، حزمت حقيبتي.

وعندما ذهبت لأودع صديقتي العانس، شحب وجهها، وراحت، وهي تستند بيدها على عصاها، تنقب بين مجموعة تماثيلها العزيزة. كانت أصابعها ترتعد وكان وجهها يرسم تعبيراً رقيقاً حالماً لدرجة بالغة. وظننت لحظة أنها نسيتني. وكنت أنتظر بفارغ الصبر وأنا أتخطر في المكان. ثم التفتت نحوي ودسَّت في يدي تمثالها المفضل، الذي يمثل الحارس الليلي

الصغير، وهي تهمهم قائلة:

ـ لا تنسني.

كنت بالغ التأثر، بالغ الذهول، حتى إنني لم أجد كلمة أجيبها بها.

ولم ألبث، للأسف أن نسيت صديقتي العجوز! فقد كنت قد غادرت المدينة، وسلكت حياة مختلفة كل الاختلاف. فما أن عدت إلى مسقط رأسي، حتى تزوجت وعشت حياة سعيدة للغاية. وكان بيتنا فسيحاً مشمساً، مليئاً بجمهور من الأصدقاء وكان كل ما فيه يفيض بالبهجة والشباب. وكان به أثاث فاتح اللون بسيط التكوين مريح للنظر، ونباتات خضراء في أصص زاهية الألوان.

ومع ذلك فقد كان يحدث لي في بعض الأحيان أن أشتاق إلى التحف القديمة التي كانت موجودة في المنزل الرمادي القديم، كما كنت أشتاق إلى الجمال البالي، ورائحة الناردين والنفتالين التي كانت تنبعث من المنزل. ولمواساتي، كانت زوجتي تشير لي بأصبعها، إلى الحارس الليلي الصغير وتلومني وهي تضحك لأنني لم أستطع أن أستعلم عن قصته، والتي كانت تشك أنها قصة عاطفية. وكان عليَّ، عند سماعها، أن أستعيد أسرار العانس وأقصَّ من حياتها الجانب الذي يتصل بالحارس الليلي.

وظل هذا الحارس صامتاً مستغلقاً. ولم يكن يذكرنا بشيء، نحن معشر الآخرين، بل لم يكن يذكرنا حتى بالوقت المتأخر، أو مرور الزمن. إن الشخص الوحيد الذي بدا أنه كان يوليه بعض الاهتمام كان عم زوجتي. وما كنت أبدأ الحديث عن الآنسة «جينيدين»، حتى أسمع رنين ضحكات زوجتي، لقد كانت علاقاتي بالمالكة العجوز تسليها بطريقة عجيبة وكانت هذه السخرية الخفيفة غير المكترثة، وتهكمات أصدقائي، الذين كانوا لا يتركون فرصة دون أن يعاكسوني بسبب «جميلتي ذات الخشب النائم»، كانت كل هذه الأمور تترك في نفسي شعوراً خفيفاً بالمرارة، فمما لا شك فيه أنني أضعت وقتاً طويلاً في ذلك المنزل، وكان هذا التهكم يمنعني من التحدث عن ذلك. ولكن الشيء الغريب هو أن هذا التمثال كان يجذب عم زوجتي، لذلك فقد رويت له كل ما كنت أعرفه عن تلك التي أعطتني إياه، وهي الآنسة « سيبيل جينيدين ». فبدت عليه الدهشة البالغة لسماع قصتها، وغير موضوع الحديث بطريقة توحي بالتأثر والاحتداد. ومع ذلك، فإن الاهتمام الذي أولاه للتمثال، والأذن الصاغية التي استمع بها إلى قصته أثارا في نفسي تلك الذكريات القديمة التي كنت أظن أنها دفنت إلى الأبد في عالم النسيان».

كان هذا العم رجلاً بهيجاً محباً للفكاهة، وكان على الرغم

من سنـه، لا يـزال يتـطلع إلى الفتيـات الجميـلات الـلاتي يصادفهن في طريقه. . وكان يقول، إنه لم يكن في حيـاته ذا طبيعـة عاطفيـة، لذلـك فـإن الحب، في رأيـه، يـطرد الحب الآخـر. أما الآن، فـوا أسفاه! لقـد مضى زمن الحب، وكـان يدرك ذلك ويأسف عليه.

لقد ظهر أن وصفي للسيـدة العجوز قـد سبب له اضـطراباً عميقاً. وبعد ذلك بفترة عاد إلى داره.

وذات يوم، لاحظت أنني أشعر برغبة عارمة في رؤية المدينة الصغيرة الساحرة ومنزل الآنسة جينيدين الرمادي القديم. ولما كان ينتابني شعور غامض بأنني قد أصل بعد فوات الأوان، فقد كتبت إليها في الحال. وسرعان ما جاءني الـرد. تخبرني فيـه بأنها سعيـدة للغايـة لرؤيتي مـرة أخرى. وأنهـا تنتظرني بفـارغ الصبر. فرحلت وقلبي يفيض بالسعادة، وأنا أشعر، بالذكريات تلاحقني وهي تزداد كلما اقترب القـطار من تلك الأماكن التي عشت فيها ساعات كثيرة رائعة.

ووجدتني، وأنا لاهث بعض الشيء، أمام الجدار المرتفع. وكم كانت دهشتي عندما وجدت أن الباب قد أعيد طلاؤه من جديد وأنه يلف على محوره دون أن يصدر عنه أدنى صـرير. وكان ثمة ستائر جديدة، ذات رسوم حديثة، تتدلى من النوافذ.

ولأول وهلة، لم يكن داخل المنزل قد تغير. ولما لم تقو الآنسة «جينيدين» على كتم فرحتها، فقد تركت كرسيها بمجرد أن لمحتني وأقبلت للقائي، ووجهها يفيض بالسعادة، ورأيتها وهي تتقدم نحوي، في مشيتها العرجاء. وضمتني بين ذراعيها. ولقد شعرت ببعض الخيبة، لأنها كانت قد هجرت زينتها القديمة التي كانت تناسبها كثيراً، وارتدت ثوباً من آخر طراز تقريباً، ولقد أفقدها هذا التغيير كثيراً من جاذبيتها القديمة.

وقالت لي بعد ذلك بقليل:

ـ هل تعلم أنني أردت أن أرى العالم مرة أخرى؟ فبعد رحيلك بقليل، استأجرت عربة وقمت بجولة في المدينة. كان قد مضى زمن طويل منذ أن اعتزلت كل تلك الأشياء التي تتصل بالماضي.

وألقيت نظرة على المعزف، فألقيته خالياً. وكانت تتابع نظرتي فقالت:

ـ نعم، كنت قد ضحيت بتمثالي المفضل، وعلى ذلك، فلم تعد للتماثيل الأخرى أية قيمة في عيني. فطلبت من خادمتي أن تذهب لتبيعها لأحد تجار التحف القديمة. إن مكانها لم يعد هنا.

وابتسمت لي سيبيل جينيدين في رقة.

وبعد أن استأذنتها، رحت أهيم طويلاً في طرقات المدينة الصغيرة. وبعد ذلك وجب علي أن أفكر في العودة. ولما كان العم قد علم بزيارتي للآنسة جينيدين، فقد كان في انتظاري على رصيف المحطة في صحبة زوجتي. ومضت عدة لحظات قبل أن يجرؤ على إخباري بسبب حضوره إلينا. لقد اعترف لي أن صورة تلك السيدة العجوز كما وصفتها له، وهي تعيش وحدها مع ذكرياتها، قد أثرت فيه تأثيراً شديداً حتى أنه يريد الآن أن يعرف، عن طريقي، الجو الذي تعيش فيه. كنت لا أزال تحت تأثير زيارتي للآنسة جينيدين، فكنت مليئاً بالانطباعات الحيَّة، وبمساعدة خيالي، رسمت له المدينة الصغيرة.

كنا معاً نسير في الطرقات الضيقة التي كانت تؤدي إلى المنزل الساكن، وطفنا حول البئر القديمة ذات الشكل الأثري، وانحنيها على حلقتها ونحن نمس الحجارة التي تكون ملتهبة في الصيف، وباردة في الشتاء، والتي لا يستطيع أحد أن يجلس فوقها. كان ميدان السوق يمتد أمام عيوننا، بحوانيته الصغيرة الجذابة، ذات النوافذ التي تلمع تحت أشعة الشمس. وفجأة أدركت الشعور الذي أبقاني طويلاً مشدوداً إلى كل تلك الأشياء. وكانت المنازل العسلية اللون أشبه بفتيات يرتدين الزي الوطني، ويرقصن في دائرة وقد تشابكت أيديهن، وثبتن على هذا الوضع الرائع بتأثير السحر. ولقد

كنت متألماً حقاً لأن ما قامت به السيدة العجوز من بيع التماثيل وقطع صلتها بحياتها الغابرة، قد أفسد بعض الشيء تصوري للمدينة الصغيرة. ولقد حزن العم نفسه وهو ينصت لي.

وخلال الشهور التالية، كنت أعمل كالمجنون، لا أكاد أدرك الزمن الذي كان يمضي حثيثاً. وفيما بعد، أخبروني أنني استعدت مقدرتي في التصوير.

ولم نعد نسمع شيئاً عن العم. ولأقلها بصراحة، إننا لم نكن نستوحش له. وبعد موته، تلقينا وصية من نوع غريب، صندوقاً يحتوي على جميع التماثيل الخزفيَّة التي كانت تملكها الآنسة «جينيدين». وكان مرفقاً بها خطاب يقول: «إنني لم أنظر في حياتي إلى أي ذكرى بوصفها شيئاً مقدساً، ولم أسع قط لأن أظل حياً في ذاكرة أي إنسان. كان الماضي بالنسبة لي شيئاً لا أكترث له، المستقبل وحده كان يستهويني، ولهذا السبب لم أعرف في حياتي أي إنسان معرفة حقه.ـ وخلال سنوات حياتي الأخيرة، تألمت لهذه الحالة. لأن وحدتي كانت تبدو أسوأ من الموت. لذلك قمت برحلتي الطويلة إلى المدينة الصغيرة، مدينة. . . واشتريت كل هذه الأشياء التي تمثل ذكريات حب قديم. وأعتقد أنكم متلهِّفون لاستقبالها. وكما أدركتم، إنها تماثيل الخزف التي تملكها الآنسة العزيزة التي ظلت تحتفظ بي طويلاً في قلبها».

إن التماثيل لا تزال موجـودة في أحد أركـان المسكن ولقد قررت زوجتي أن من الواجب أن أقوم بزيارة الآنسة وأخبرها بنبأ الوصية التي تلقيناها. فمن المؤكـد أن هذا سيـدخل السـرور على قلبهـا ويملأ حيـاتها. وفي النهـاية سـافرنـا إلى المدينـة الصغيرة الحبيبة.

ولقد تأثرت العجوز لقصتنا تأثراً بالغاً. ورأيت دموعـاً كبيرة تسيـل فوق خـديها المغضّنتين. فنهضت في عسـر وصعـوبـة وراحت وعينـاها مبللتـان بالـدموع تتحسّس بيـدها بـاحثة عن منديل، مع أنه كان ثمة منديل فوق الكرسيّ، في متناول يدها. وتزعم زوجتي أن هذا المنديل الذي كانت الآنسة «جينيدين» تحتفظ به بالقرب منها بوصفه شيئاً عزيزاً ، كان منديلي ، ذلك المنديل الذي كان فعلاً ناقصاً من دستة مناديلي .

# دَيْـن قـديـــم

تأليــف: يازوشي إينو.

في الساعة الثالثة من ذلك اليوم، كان «سينجيرو ساكو» في مطار «إيتامي» ليستقل الطائرة إلى طوكيو.

كـانت الأيـام الثـلاثـة التي قضـاهـا في «أوزاكــا» حـافلة بـالأعمال. وكـان فنـدق «طـويـو»، وسط المـدينـة، معـروفـاً بضخامته والسرعة التي تم بها تشييده على أثر انتهاء ا لحرب، وكان ذهاب صـاحبنا وإيـابه في ردهـة الفندق، وهـو واثق من نفســه، أحرى بـأن يثير غيـرة النحلة النشيطة في فصـل جمع الغذاء.

كـان قـد تلقى ثمـاني زيـارات، وزار ستــة أشخـاص في مختلف مقـار الشـركـات وفـروعهـا وإداراتهـا، وحضـر أربـع سهرات، وأثنى على المزايا التي تتمتع بها الكراسي التي تقوم

شـركته بصنـاعتها، وشـرح المبادىء التي تقـوم عليها شـركته وتحدث عن مستقبلها.

وفي اليوم الرابع لم يعد لديه مـا يفعله. فتناول الغـذاء في هدوء في أحد أركان مطعم الفندق.

وسأل مدير الفندق قائلاً:

ـ من أين جاء هذا البطيخ؟

كـان «سينجيرو سـاكو» أشيب الشعـر في نحـو الستين من عمره.. وكان نشيطاً، محباً للنظام، ولقد قام بواجبه خير قيام، وكان راضياً عن الناس. ولأول مرة كان بوسعه أن يتحدث في موضوعات لا علاقة لها بالأعمال:

ـ من «كوبيه»، على ما أظن.

ـ إنه أصفر جداً. لا بد وأن السبب يعود إلى التسميد. كان يجب أن يكون أكثر نضجاً.

ليس ذلـك لأنه كـان يهتم بصفة خـاصة بـالبطيـخ. وما أن انصرف مدير الفندق، حتى أخذ منه قضمة كبيرة. فراح البطيخ اللذيذ المفعم بالعصارة يذوب في فيه.

ومـا أن انتهى الغداء، حتى خـرج إلى الـردهـة، وأشعـل سيجاراً، ثم أخرج مفكرته من جيبه الداخلي. وكانت كل عبارة في القائمة مشـطوبة بخط أحمـر. فقد أنجـز كل شيء. وفي

الخريف سيقوم بافتتاح فرع لمصنعه في «أوزاكا» لكي يغطي السوق في منطقة «كانزيه». ونظر في ساعته. كانت الثانية عشرة والنصف ظهراً. إن حافلة المطار تخرج من أسفل المدينة قبل رحيل الطائرة بساعة تقريباً. فلا تزال أمامه ساعتان.

وعاد فصعد إلى حجرته، ووضع ماكينة الحلاقة وفرشاة الأسنان، وبعض الحاجيات الأخرى داخل حقيبته، ثم أغلق الباب ونزل إلى مكتب الفندق ليسدد الحساب. وكان قد عزم على قضاء هاتين الساعتين في نزهة على طول نهر «دوجيما» الذي يخترق وسط المدينة، بالقرب من الفندق.

وكان ثمة طريق محفوف بالأشجار مزدحم بالدراجات والسيارات يسير بحذاء النهر، وأسفل منه قليلاً، وعلى الشاطىء ، يوجد ممر ضيق ينزل فيه المتنزهون في المساء أزواجاً. أما في النهار فيكون خالياً كأنما قد نسيته المدينة.

وبعد عشر دقائق، كان «سينجيرو ساكو» يتمشى على طول هذا الممر. ولم يكن يبدو في الأفق متسكعون آخرون.

كانت ظلال أشجار الصفصاف المغروسة على مسافات متساوية بطول الطريق العلوي، تسقط في خطوط متشابكة على الممر. وفوق النهر كانت تطفو بعض المخلفات، إلا أن شمس

مايو كانت تعكس أشعتها على سطح الماء في نقط من الضوء أشبه بأصداف السمك، وكانت النسمة منعشة. في ذلك الحين قابل صاحبُنا الرجل ذا الندبة.

كان وجهه عادياً، في نحو الأربعين من عمره، وكان الرجل قد نزل إلى الممر، على بعد بضعة أمتار من «سينجير وساكو» مستخدماً أحد السلالم الحجرية التي كانت تقوم على مسافات متباعدة وتفضي إلى الشارع العلوي، ولكنه كان بالنسبة «لسينجيرو ساكو» كأنما قد هبط من السماء.

وتقدم الرجل ذو الندبة في بطء نحو «سينجيرو ساكو» الذي تنحى جهة النهر ليفسح له الطريق.

كان القادم الجديد يبدو منهكاً قد استنفده العمل والهم. فلم يتنبه لوجود «سينجيرو ساكو»، ومضى، وهو حاني الظهر قليلاً، خافض العينين، دون أن يتطلع إليه.

ولكنه قبل أن يتقدم خمس خطوات، التفت «سينجيرو ساكو» خلفه فجأة، وتراجع خطوة إلى الوراء وصاح فيه قائلاً:

ـ عفواً! أنا أعلم أنها قلة ذوق من جانبي، ولكن ألم تكن يوماً في مدينة «أكيتا»، قبل عشرين عاماً؟

فرمقه الآخر لحظة بارتياب. ثم قال بغشم الشخص الذي

لم يتعود على آداب اللياقة ومقتضيات الذوق.

ـ أكيتا؟ نعم، لقد عشت فيها عندما كنت شاباً. إنني مولود فيها.

ولقد بدا عليه الضيق قليلاً بسبب هذا السؤال الدخيل، ولكن مما لا شك فيه أن الندبة التي بوجهه كانت تساهم في خلق هذا الإحساس. فيبدو أن وجهه كان دائماً يوحي بتعبير يشوبه القلق والارتياب.

ـ آه!

صرخة مكتومة، شديدة، أطلقها «سينجيرو ساكو».

ـ هو ذاك إذن. أعلم أنه سبق لي أن رأيتك. كنت أفكر فيك طوال تلك الأعوام العشرين. وكنت أتمنى دائماً أن أراك مرة أخرى. لقد قابلتك في «أكيتا» وأنقذت أنت حياتي. لا تؤاخذني، ما اسمك؟

ـ «تاكيز وكيكوشي». ولكن لا بد وأنك مخطىء.

كان ارتياب الرجل ذي الندبة يزداد أكثر فأكثر.

ـ تاكيزو كيكو شي.

كرر سينجيرو ساكو الاسم كما لو كان اسم صديق حميم. ثم بذل مجهوداً ليهدىء من روعه. وكان يتساءل كيف يبدأ.

في إحدى ليالي ديسمبر، قبل عشرين عاماً مضت، كان «سينجيرو ساكو» يتنزه في شارع صغير منعزل من شوارع «أكيتا» وفي رأسه أفكار عن الانتحار. كان يعمل في «أكيتا» في أحد فروع شركة صناعية في طوكيو. واستخدم أموال الشركة في المضاربة على أخشاب البناء، وانتهت المضاربة نهاية غير محمودة، فأصبح مطارداً من الدائنين، ومهدداً باكتشاف الاختلاسات، وأغلقت في وجهه كل السبل.

صادف ذلك أيام الاحتفالات التي تقام في نهاية العام، ومضى صاحبنا، تحت الجليد الدقيق، يسير بلا غاية خلال المدينة في شارع رمادي اللون، وقد ضاق عليه الخناق وهو بين الحياة والموت. وكان سيختار الموت لولا أنه فكر في زوجته الشابة التي لم تكن حتى لتعلم شيئاً عن مشكلاته. هذه الفكرة وحدها كانت تحتجزه على شاطىء الحياة.

«يا للراحة التي سألقاها في الموت! يا للراحة! . . .».

هذه اللازمة السوداء، كان يرددها في هدوء، في قرارة نفسه. ولكنه إن مات أصبحت زوجته بلا مورد.

ـ عفواً، هل معك كبريت؟

فعاد سينجير وساكو إلى نفسه. ونقب في جيبه. كانت كرات دقيقة من الجليد تتراقص داخل دائرة النور التي كان

يرسمها عود الثقاب ومصباح كان يحمله الرجل الذي اعترض سبيله.

وحدث «سينجيرو ساكو» نفسه قائلاً: «لا بد وأنني أهيم تحت هذا الجليد منذ ساعات». وأعاد الرجل إليه علبة الثقاب.

ـ شكراً.

ولما مضى الرجل الآخر، وهو مائل قليلاً إلى الأمام، ظهر وجهه في دائرة الضوء التي كان يرسمها المصباح، ورأى «سينجيروساكو» باشمئزاز، أن جانباً من وجه الرجل مشوه بصورة بشعة بسبب ندبات خلفها حريق قديم. كان الرجل في ريعان شبابه وكان، يرتدي زي موظف بالسكك الحديدية. وعندئذٍ لاحظ «سينجيرو ساكو» أنه يسير في شارع شبه مهجور وراء المحطة. فقد كانت هناك أسلاك مرتفعة تسير بحذاء أحد جانبي الشارع، وسمع «سينجيرو ساكو» صوت صفارة بعيدة لإحدى قاطرات السكة الحديدية.

كان المصباح ينير بضوء شديد مخزناً للبضائع، بدأ الشارع من بعده يتفرع إلى اليمين وإلى اليسار.

وكان «سينجيروساكو» وهو يحدق في النور الذي كان يبتعد يتساءل عن الوجهة التي سيتخذها نور المصباح الذي كان

يحمله الرجل ويقول في نفسه: إذا اتجه إلى اليمين سأنتحر، أما إذا اتجه إلى اليسار فسأواصل الحياة».

إن الطريق الذي كان سيتخذه النور لم يكن في ظاهره ذا أهمية على الإطلاق. ولكنه كان يركز نظره عليه في اللحظة التي كان يقترب فيها وهو يرتجف من مفرق الطريق. وانعطف النور إلى اليسار واختفى مع البعد شيئاً فشيئاً.

فقال «سينجيروساكو» لنفسه: «يجب أن أواصل الحياة. ولكن هذا القرار كان مصحوباً بنوع من السأم عندما تذكر العذاب الذي سيظل يلازمه.

ومع ذلك فإن نبذه لفكرة الموت في تلك الليلة هو الذي جعله يتغلب على الصعوبات، ويحصل في نهاية المطاف على هذا المركز المحترم بعد عشرين عاماً من الحادث.

لقد أصبح رجل صناعة من الطراز الأول، وعندما كان يذهب إلى المسرح أو إلى أحد المطاعم، كان يجلس في كرسي موسد ـ يحمل العلامة المميزة لشركته. لقد أصبح قوة وكان من الواجب أن يكون في عداد أعضاء الغرفة التجارية.

وكان «سينجيرو ساكو» يحبُّ أن يروي هذه القصة. كان يرويها بانفعال وحماسة في أغلب الأحيان حتى إن الأصدقاء كانوا يبادرونه قائلين:

ـ إذن، سنسمع مرة أخرى قصة الرجل ذي الندبة!
ولكن زوجته لم تكن تمل من القصة التي كانت تنتهي دائماً بهذه الكلمات:

ـ وكانت في وجهه ندبة فظيعة.
وكانت زوجته تكرر هذه العبارة:
ـ إنك مدين بالكثير لهذا الرجل. هل تعرف كيف أصبح الآن؟

ـ إنني أود أن أعثر عليه مرة أخرى.
ـ لو حدث هذا، فلا بد وأن تكافئه بأية وسيلة.
كانت زوجته امرأة ضخمة، تكرس حياتها لأعمال الخير، وكانت خير جمهور له.

ومما لا شك فيه أن « سينجيرو ساكو » قد قام بعملية بحث محدودة داخل « أكيتا » ، ولكنه لم يعثر مطلقاً على أثر للرجل ذي الندبة . أما بالنسبة لزوجته ، فإن هذا الاختفاء التام أضفى على القصة طابع الغموض الذي يزيد من قيمتها .

ولكي يروي قصته هذه ، كان « سينجيرو ساكو » قد جلس على درجات السلم الحجري المؤدي إلى النهر الذي كان مجراه العريض يمر أمامه في هوادة . أما الرجل المسكين ، الذي كان منقذه فيما مضى ، فقد كان يجلس إلى جواره .

- إنني أودُّ أن أفعل شيئاً من أجلك إن استطعت.

كان « سينجيرو ساكو » يكرر الجملة الذي قالها وأعاد قولها سنوات بأكملها لزوجته ولأصدقائه .

أما بالنسبة «لتاكيز وكيكوشي»، فقد كان الموقف ضرباً من الوهم أو الخيال. فلم يكن بوسعه أن يصدق ما كان يحدث له، وكان يتساءل إذا كان لا ينبغي عليه بكل بساطة أن ينهض وينصرف .

كان قد غير من مهنته نحو اثنتي عشرة مرة منذ بدأ حياته في سكة حديد «أكيتا»، ولكن ما من تغيير من هذه التغييرات جلب عليه السعد، وهو الآن، سمسار تأمينات، يكسب بالكاد ما يضمن لأسرته المسكن والمأكل.

وخلال التغييرات المحمومة التي كانت تطرأ على وظيفته ومحل إقامته، سعياً وراء متنفس في تلك المعركة التي يخوضها ضماناً لحياة أفراد أسرته، كان سوء الطالع يطارده. فلم يكن بوسعه أن يفرَّ من تلك الندبة البشعة التي تشوه خده والتي تقع مسئوليتها على أم مهووسة، وكان مقتنعاً بأنه لن يستطيع على الإطلاق أن يفر من سوء الحظ، ومن العمل المضني ومن الفقر. كان يشعر بأن الحياة لا تتضمن معنى حقيقياً وبأنه لا أهمية لكونه حياً أو ميتاً. وكان يتصور في بعض

الأحيان أنه إذا ترجمت الصرخة التي ترك بها أحشاء أمه، فإن معناها سيكون: «لا أريد. لا أريد.».

وها هو ذا من جاء يخبره بأنه قد أنقذ، دون علمه، حياة شخص آخر وساهم في تكوين مركزه المرموق وحياته السعيدة الرغدة.

وراح يتأمل قدميه في خفيه الباليين فَلَاحَا لَهُ وكأنهما قدمان جلبتا الحظ لرجل آخر، ولكنهما لم تصنعا شيئاً من أجل صاحبهما.

وسأله الرجل العجوز قائلاً:

ـ هل لك أسرة؟

ـ زوجة وأربعة أبناء.

ـ ليس من شأن هذا أن يجعل أمورك سهلة ميسرة. أرجوك، قل لي كيف أستطيع مساعدتك. ضع جانباً كل حرج أو ضيق.

إن «تازيكوكيكوشي» ينصت الآن بشعور بالأمل يضخم صوت هذه الرؤيا المذهلة. وعض على شفته لكي يتأكد أنه متيقظ فعلاً. وكان يشعر برغبة تدفعه إلى أن يصيح من الفرحة. وبدلاً من أن يفعل ذلك، قال متردداً:

ـ إنها ستندهش عندما تعلم بهذا!

كان يفكر في زوجته.
وفجأة، فكر «سينجيروساكو» في زوجته هو.

- لماذا لا تأتي معي إلى طوكيو؟ إنني أحب أن أقدمك إلى زوجتي، كنت أنوي أن أسافر إلى طوكيو الليلة.

كان «تاكيزوكيكوشـــي» ينتظر، في القريب العاجل، طفـلاً خامساً. وكان لا بد له من تدبير بعض النقود. وكان يتعشم أن يستطيع اقتراض بعضها من عم له يدير متجراً في طـوكيو، لم يكن هذا العم غنياً، ولكن حالته كانت تسمح له بألا يحمل هم الوجبة القادمة.

- عظيم!
ونظر «سينجيرو ساكو» في ساعته. كانت تقترب من الثانية.
- سأستقل الطائرة بعد ظهر اليوم. فلماذا لا تأتي معي؟

- في الطائرة؟
لم يكن «تاكيزوكيكوشي» قد سافر بـالطائـرة أبداً. فكـانت فكرة إمكان حدوث هذا الأمـر تبدو لـه شيئاً غـريباً بـل خارقـاً للعادة.
- إنها تقلع في الثالثة. هل تستطيع أن تأتي مباشرة؟
- إنني أخشى ألا أستـطيـع. فلدي أعمـال كثيـرة يجب أن أؤديها بعد الظهر.

وفي الواقع، كانت لدى «تاكيزوكيكوشي» أعمال عليه أن يؤديها. فقد كان عليه أن يطلب يومين إجازة من رئيسٍ عبوس، ويقترض نقوداً من أحد المرابين، ويحمل النقود إلى زوجته.

ونظر «سينجيروساكو» في ساعته مرة أخرى ومكث مفكراً لحظة.

ـ هناك طائرة أخرى في الثامنة. أستطيع أن أستقلها معك. هل هذا يناسبك؟

كان نادراً ما يغير جدوله من أجل أي شخص كان، ولكنه سيخرج على القاعدة من أجل منقذه القديم.

ونهض الإثنان. ووعد «تاكيزوكيكوشي» بأن يكون في الفندق في الساعة الخامسة. وانصرف بخطى أكثر خفة ورشاقة. وكان يشعر مقدماً بأنه على أهبة التحليق في السماء.

وتناول رجل الأعمال ومنقذه الغداء معاً في مطعم الفندق. وكان الغداء بالنسبة «لسينجيروساكو» وجبة رائعة لا تتكرر في الحياة كثيراً. ولم تعد ندبة ضيفه تثير نفوره. بل لقد كان سينجيروساكو» يتصور أن بوسعه أن يعطي «لتاكيزوكيكوش» عملاً في مصنعه دون أن يثير بذلك اشمئزاز العمال الآخرين. كان يحدِّث نفسه ويقول: «كم ستندهش زوجتي عندما نظهر أمام الباب».

كانت زوجته في هذه السنوات الأخيرة قد فقدت عادة الاندهاش وأخذت في السمنة كما لو كان هذا هو مشغوليتها الوحيدة في الحياة. أن مفاجأة سارة تفيدها خيراً من كل ما يمكن أن يتصوره.

أما عن «تاكيزوكيكوشي»، فإنه لم يتصور أن تتاح له في حياته مثل هذه الوجبة مرة أخرى. ولولا شعوره بالحرج بسبب إحساسه بثيابه الرثة وخفيه الباليين، لكان في قمة السعادة.

كان يفكر في كل ما فقده طوال تلك السنين، وهو يدير ظهره للحياة وللناس. وكانت المشروبات اللذيذة تجعل ندبته تلمع مثل المنارة. وكانت الأطباق التي تتتابع ـ وأي أطباق، إنه لم ير في حياته مثيلاً لها ـ تدير رأسه.

ـ قد يكون من الواجب أن أبعث ببرقية إلى زوجتي لتعلم بمجيئك.

ولكن سمسار التأمين لم يكن ينصت له، ولم يسمع رفيقه وهو يرسل الغلام بالبرقية.

وكان الرجل العجوز يتحدث، ويتحدث، غير أن «تاكيزو كيكوشي» ، من علياء نعيمه، لم يكن يلاحظ، من وقت لآخر، سوى حركة شاربه الأبيض وكأنها عنصر مكمل لنشوته الذاتية.

وبعد السابعة بقليل، توجها إلى المحطة واستقلا حافلة المطار.

وألقى «تاكيزوكيكوشي» نظرة إلى السماء وهو يدخل الحافلة فسقطت حبة من المطر على جبينه. لم تكن هناك رياح، ولكن كانت ثمة سحب تزحف في اتجاه الشمال الشرقي وسط سماء المساء الجميلة.

كانت الطائرة متأخرة عن موعدها بعشرين دقيقة. ولم يلاحظ «كيكوشي» الوقت الذي أقلعت فيه.

ـ ستكون في مطار «هانيدا» بعد ساعة ونصف.

كانت كلمات الرجل العجوز تبدو غريبة عجيبة. فإن عبء كل هؤلاء الأبناء لم يمكِّن «كيكوشي» مطلقاً أن يسافر في مجرد قطار سريع.

وانقضت الساعة والنصف.

وأنارت العلامة التي تدعو إلى ربط أحزمة المظلات، إلا أن الطائرة لم تتهيأ للهبوط.

فقال سينجيرو ساكو:

ـ يبدو أننا تأخرنا قليلاً.

ثلاثون دقيقة مضت وما من علامة تبشر بالهبوط. ونظر من النافذة الصغيرة. لم يكن يظهر تحت الطائرة إلا امتداد مظلم

للبحر. ونظر في ساعته عدة مرات وبـدأ يشعر بقلق غـامض. فأوقف المضيفة الجوية الشابة عندما خرجت من حجرة القائد وسألها:

- ماذا حدث؟ لقد تأخرنا. أليس كذلك؟

- إننا لا نستطيع أن نهبط بسبب السحب. ولكنني لا أعتقد أن هناك ما يدعو للقلق.

إن إجـابتها التي كـانت أميل إلى الالتبـاس قد أثـارت قلق «سينجيرو ساكو». كان يبـدو أن هناك معـزى وراء عدم قـولها بكل بساطة: «ليس هناك ما يدعو للقلق».

- هل ظللنا طوال الوقت نحوم فوق « هانيدا »؟.

- نعم، يا سيدي.

- عـظيم. ولكن يبـدو أن هـذا الـوضـع سيجلب علينـا المتاعب.

وبدأ يندم على تغيير جدوله.

وإلى جـواره، كـان «تـاكيـزو كيكـو شي» مكتئبـاً منحـرف المزاج.

ونظر من النافذة فوجد أن المروحة الخارجية لم تعد تدور.

لقـد توقف أحـد المحركـات فهم لا يستطيعـون الهبـوط. وانقبض قلبه عندما أدرك معنى ذلك.

وراح الاضطراب والقلق يسيطران على الطائرة. وبدأ الركاب الأربعون يستشعرون الخطر.

وألقى «سينجيروساكو» نظرة على رفيقه. كان وجه «تاكيزو كيكوشي» أبيض من الشحوب وفمه متقلصاً.

لقد لاح «لسينجيرو ساكو» وكأنه وجه الهلاك الأبدي، وجه شيطان لسوء الطالع. إن ما حدث كان نتيجة مباشرة لمقابلة اليوم.

وبغته، قفز شيطان سوء الطالع على قدميه وهو يرفع ذراعيه إلى السماء.

فهدأت المضيفة من روعه. فعاد إلى الجلوس، وسكن في مكانه وحدث نفسه قائلاً: لماذا يحدث هذا؟ إن حياتي لم تكن سعيدة، ولكن لم يحدث لي قط أن وجدت نفسي مهدداً بخطر ميتة عنيفة. لو تحطمت الطائرة، ومت، فستكون غلطة هذا الشيطان الجالس هنا إلى جواري».

ثم التفت ونظر إلى «سنجيروساكو» بعينين متوهجتين. فرد له «سينجيرو ساكو» نظرته. وخطر له أنه ليس متأكداً على الإطلاق أن هذا الذي أمامه يمكن أن يكون ذلك الشخص الذي قابله في «أكيتا» قبل عشرين عاماً. وإذا كان هو فعلاً، فما أثر تلك الانعطافة إلى اليسار على حياته أو موته؟ فقد كان

من الممكن جداً أن يقوم كلب بهذه المهمة، في تلك الليلة.
وراح سينجيرو ساكو» يلعن سذاجته وطيبة قلبه اللتين قادتاه إلى هـذه الكارثـة وانفجر سمســار التأمين قـائـلاً، وقـد عجـز عن الاستمرار في ضبط نفسه:
- إنني لم أرغب في أن أركب طائرة!
كانت لهجته قد تغيرت تماماً. وكان وجهه يعطي الإحساس بأنه على أهبة أن ينقض على شخص ما.

وكردّ فعل على هذا الموقف، خلد «سينجيرو ساكـو» إلى هدوء بارد كالجليد، وتطلع في ازدراء إلى شيطان سوء الطالع هذا الذي فقد السيطرة على أعصابه بهذه الطريقة.

ثم حدث نفسه خلسة: «إن مقاعد الطائرة تدفعك إلى الأمام وتـوحي إليك بعـدم الاطمئنان. لـو خرجت سـالمـاً من هـذا المأزق، فإنني سأتخذ في المصنع الإجراءات اللازمة لصناعة مقاعد للطائرات أفضل من هذه المقاعد. ولكن من الجائز أن الأوان قد فات للتفكيـر في مثل هـذه الأمور. وتحـول تفكيره باشمئزاز عن هذا الموضوع.

وبـدأت الطائـرة تفقد تـوازنهـا. فـزادت مخـاوف الـرجـل العجوز. ثم سمع صـوت المضيفة في مكبـر الصوت وكـأنه صوت ملاك حارس:

ـ إننا نأسف لإزعاجكم، الطائـرة ستهبط في «هانيـدا» بعد خمس دقائق.

أمـا «سينجيرو» و«تـاكيــزو» فلم يفتح أيهمـا فمـه خـلال الدقائق التالية.

وخرجا من الطائرة وقد افترقـا وسط زحام الـركاب. وكـان سينجيرو يبحث بعينيه عن شبح زوجته الضخم بين الجمهـور الذي كان ينتظر في مدخل الردهة. فنادته بمجرد أن لمحته.

ـ لقد تأخرت ساعة. كنت في غاية القلق. ولكن أين فاعل الخير الذي أحسن إلينا.

وراحت تتطلع حولها، متلهفة لـرؤية ذلـك الشخص الذي تدين له بالكثير.

أمـا رجل الأعمـال العجوز وسمســار التأمين فقـد رمق كل منهما صاحبه بنظرة وهما يدخلان الردهـة. وافترقـا دون كلمة واحدة.

لقد خيل «لسينجير و ساكو» أنه في هذه النظرة الأخيرة رأى شخصاً جديداً كل الجـدة، ما من شـك في ذلك. لا المنقـذ الذي تناول معه الغداء في «أوزاكا» قبل ثلاث ساعـات، ولا شيطان سوء الطالع الذي كان جالساً إلى جواره في الطائرة. لقد رأى ما كان يجب أن يراه منذ البداية: مجرد سمسار تـأمينات

حقيـر لا يثيـر اهتمـامـه في شيء. وبـالـمثـل ، كـان («تاكيزوكيكوشي» يرى في «سينجيـرو» رجل أعمـال عجوز لا تربطه أية علاقة بحياته البائسـة، وأشاح بـوجهه مـع رجفة من أهدابه ملؤها الارتياب

وسألت مدام ساكو مرة أخرى:

ـ أين هو؟ . . . أين فاعل الخير الذي أحسن إلينا؟

كان «تاكيزو كيكو شي» في تلك اللحظة يدخل الحافلة.

وكان يحدث نفسه قائلاً: «يا له من يوم قذر! لقد نسيت أن أسترد ثمن تذكرة السكة الحديدية التي اشتريتها قبل يومين».

## الحب . . . كلام فارغ

**تأليف : سونا .**

في فناء مزرعة «جرينـووتر»، كـان جواد القس في انتـظار سيده الذي كان ماثلاً عند رأس سرير المـزارع الكهل. وكـان القس قـد انتابتـه هزَّة عنـد رؤيته لـوالد «كـاترين» الـذي كان المرض قد غيره تماماً. وها هي نظرته التي كانت قاسية غامضة في المـاضي معلقـة بـالفضـاء، مستقيمـة أمـامـه. إن شفتيـه الزرقاوين، ولونه الـرمادي، وشعـره الذي كـان يسقط في غير نظام فوق جبينه المبتل، كل ذلك كان يشكل تناقضاً صارخاً مع الصورة التي كان القس يحتفظ بها لعدوّه الكهل.

لم يتنازل المريض بالردِّ على تحية القس. وكان يتابع ابنته «كاترين» بعينه وهو يتساءل عما إذا كانت قد بكت مرة أخرى.

وقـدَّمت «كاتـرين» كرسيـاً إلى القس وهي تهمهم بصـوت رقيق :

ـ إن والدي اليوم ضعيف للغاية.

ثم استدارت وخرجت مسرعة، تحت نظرة الرجلين.

كانت «كاترين» هذه فتاة لطيفة. وكان القس يعرفها خير المعرفة ولو كان قدر للمزارع العجوز الصعلوك أن يموت قبل عشر سنوات مضت لكانت «كاترين» الآن زوجة القس، ولكن الشيخ، في ذلك العصر، لم يحاول أن يفهم أبداً. كان قد أعلن أن ابنته لن تتزوج سوى مزارع. ولم تستطع توسلاتهما، ولا دموع كاترين أن تثني الأب عن قراره وكان يجيب على كل توسلاتهما بهزة من كتفه، وكان يقول:

ـ الحب... كلام فارغ!

وجلس القس عند رأس سرير المريض. كانت هذه أول مرة يجتاز فيها عتبة المزرعة منذ عشر سنوات. إن وجوده مرة أخرى في هذا المكان، بالقرب من رجل عرف عنه الشدة والبأس، قد ولد عنده شعوراً بالشماتة والانتصار.

وحدث نفسه قائلاً: «وأخيراً!».

وبرق شعاع ضئيل في عيني العجوز المظلمتين:

ـ ومع كل فقد حضرتَ، هيه؟

كان صوته خشناً قوياً.

فأجاب القس بنبرة رقيقة:

ـ طبعاً، لماذا أمنع مساعدتي عن رجل يموت؟

ـ ما هذه القصة؟ من قال لك إنني سأموت؟ إنني أعلم تماماً أن فنائي سَيسر الجميع سروراً بالغاً. إنني من الآن أرى عمالي وهم يعبّرون عن بالغ فرحتهم... إن قلبي يحدثني أنهم الآن يتسكعون ويضيعون الوقت سدى بدل أن ينصرفوا إلى أعمالهم. عندما يغيبُ القط.. وابنتي حينئذٍ، سترقص طرباً عندما أموت. يا للجاهلة المسكينة التي لا تستطيع حتى أن تحافظ على نفسها. كلا، لا تتصوروا أنني سأعجل بالموت لكي ألقى السرور في قلوبكم.

فأعلن القس بلهجة من يلقي حكمة:

ـ إن الحياة والموت بيد الله.

فزمجر الشيخ قائلاً:

ـ خزعبلات. إنك تعلق أهمية كبرى على مشيئة الله. ماذا يعني الإله الرحمن في نظرك أن أموت الآن، أو بعد عشر سنوات؟ سأكون أنا المخطىء، إذا مت، لأنني سأكون مثل الأبله. مثل غبي هالك. ولهذا فإني هنا أتململ بينما عمالي يضيعون الوقت، آه يا للكسالى!.

وألقى القس بنظرة قلقة على الرجل وهو يتساءل: هل هو يهذي؟ وقال الشيخ فجأة:

ـ إلى الشيطان!

وقطب الحاجبان الكثيفان، وجمدت تجاعيد الفم.

وارتعد القس لهذا الصوت القوي، وتأكد أن السنين والمرض لم تخفف من حدة طباع الشيخ. فلا يزال الطبع العنيف، المتحكم، ولا يزال النزوع إلى الثورة والتجديف.

ولبث الرجلان صامتين. وكان المزارع ينظر أمامه في غموض واكتئاب. وبدأ القس يشعر بالضيق. وتجرأ وقال:

- لقد أرسلت في طلبي؟

فرمقه الآخر بعين سوداء.

- ليس ذلك لأنني أريد أن أعقد الصلح معك، صدقني. إنني لا زلت أرى أنك لا تصلح زوجاً لابنتي «كاترين»، إن «كاترين» فتاة مجتهدة في عملها، مقتصدة في نفقاتها. إن لها عقلاً تفكر به، وعضلات. وهي تعرف كيف تدير المنزل. إنها كنز حقيقي.

فأجاب القس:

- إنني أعرف هذا كله.

- لقد جريت وراءها في الماضي، لأنك كنت تعلم أنها سترث.

وبذل القس مجهوداً ليملك نفسه. وقال بصوت يرتعش من الغضب:

- كلا، أنت مخطىء.

- كنت تعلم أنها سترث مزرعة «جرينووتر» وكل ما أملك.

فزعق القس قائلاً :
ـ وشاية !
ثم نهض محتداً . فقال الشيخ :
ـ هيه ، أنت مثل جميع الناس ، أيها القس الصغير العزيز . إنني آخر من يلومك على ذلك .
وزرر القس عباءته ، وأعلن غاضباً :
ـ لا داعي لوجودي هنا .
ولكنه استعاد ضبط نفسه . فلم يكن من اللائق أن يتشاجر مع رجل يموت .
ـ ليس بهذه السرعة ، يا قسّي العزيز ، إنني لم أنته بعد من حديثي ، قليلاً من الصبر .

ورفع الشيخ يداً هزيلة مشيراً له بالجلوس من جديد .
فأطاع القس . ومع أن الشيخ كان العقبة الوحيدة أمام سعادته ، ومع أنه ، لهذا السبب ، كان يمقته من كل قلبه ، فإنه كان لا يريد أن يجازف ويتعجل بإثارة هجوم . فقال وهو ينتقي كلماته :

ـ أظن أنك تريد أن تتلقى سر القربان؟
كان قد أحضر معه الخبز والنبيذ مصادفة .
ـ لا . سأرحل كما أنا . إن كل ما ضيعته في حياتي كان في طريق الخير .

- هل أنت واثق تماماً أنك أحسنت التصرف عندما فرقت بين كاترين وبيني؟

- نعم. لقد قلتها لك، «الحب، كلام فارغ. على الأقل، كان هذا رأيي».

فسأله القس وهو يطير فرحاً:

- وهل غيرت رأيك!

ولم يجب الشيخ. وقام بينهما صمت، صمت عسير مطبق. ومرت عدة لحظات قبل أن يقرر الكلام. ثم قال في بطء:

- كنت لم أكد أكمل العشرين من عمري، عندما جئت لأول مرة إلى «جرينووتر». لقد راقني المكان في الحال. كانت لدى صاحب المزرعة فكرة طيبة عني. وكانت «مارجريت» ابنته الفريدة، ووريثته الوحيدة. وكان الناس يقولون، إنها جميلة. ولم أكن أعيرها كثير اهتمام، حتى ذلك اليوم الذي أدركت فيه أن الفتاة والمزرعة يشكلان حصة لا تقبل القسمة، وأنني لن أحصل على المزرعة أبداً إن لم آخذ الفتاة أيضاً. فقررت أن أطلب يدها. وتحدثت في بادىء الأمر إلى والدها ووجدته موافقاً. وأخبرني بأنه لن يعهد بالمزرعة لأحد سواي.

فهز القس كتفيه باشمئزاز، وقال:

- ومرجريت، هل كانت المزرعة بالنسبة لها أثمن من سعادتها هي أيضاً؟

ـ هذا ما كان يجب أن تفكر فيه فعلاً. ولكنني أعتقد أنها لم تكن تعبأ بالمزرعة. وفي الواقع، أنا لا أدري من ذلك شيئاً. إنني لم أوجه إليها هذا السؤال مطلقاً.

ـ ألست تحب زوجتك؟.

ـ الحب، ليس على لسانك إلا هذه الكلمة، وهل أنا أعرف حتى معنى الحب؟ لم يكن لديَّ الوقت لشعور من هذا النوع. لم يكن هذا الأمر يهمني. كنت أشعر بالسعادة عندما أجدني وحيداً مع نفسي. إنني أذكر، ذات مساء، بعد العمل، أني كنت جالساً عند سفح التل أخطط مشروعات للمستقبل. كان مساء جميلاً. وكانت الشمس تنشر ذهباً في كل مكان. وكنت أتطلعُ إلى المزرعة وإلى الأراضي. كم كان كل ذلك جميلاً!... كنت أرتب في رأسي أكداساً من المشروعات من أجل تجميل المزرعة عندما يحين الوقت.

«ولكن على حين فجأة، إذا بذراعٍ يحيط برقبتي، من الخلف، واسمع صوتاً مرتعداً يهمهم قائلاً:

ـ هل تحبني؟ هل تحبني إذن؟

«كنت أظن أنها «لينا» تلك الفتاة التي كانت تغمز لي بعينيها طوال فصل الصيف. ولقد غضبت لأنها أزعجتني على هذا النحو في الوقت الذي كنت أفكر فيه في أمر المزرعة

ومستقبلها . فدفعتها عني ، وحتى دون أن ألقي عليها نظرة من فوق كتفي ، قلت لها ببرود :

ـ دعيني إذن في هدوء. إن الحب. . . . كلام فارغ!

إنني أتذكر سير الخطى فوق العشب. . . لقد أقبلت بلا ضوضاء وعادت في سكون كسحلية صغيرة. وسرعان ما نسيت المقاطعة وعدت إلى التفكير في الماشية، والحقول، ومباني المزرعة التي كانت في حاجة إلى الإصلاح. كان لا بد من بذل مجهود ضخم واستثمار مبلغ لا بأس به في الأموال. تصور، كان من الضروري إقامة مزرعة جديدة، وتجفيف المستنقعات، وتمهيد الأرض حول المسكن.

وعندما رجعت، كان الجميع نائمين. وفكرت في «لينا». كنت في النهاية قد تخلصت منها، تلك البلهاء. هل تدرجك ذلك؟ تأتي فتحيط رقبتي بذراعيها لتحاول إغرائي! «في تلك الليلة، رأيت في المنام أني أصبحت سيد «جرينووتر» كنت . قوياً، محترماً. . .

وفي صباح اليوم التالي، بينما كنت أعمل في الحقول، رأيت صاحب المزرعة يقبل نحوي وقال لي بلهجة غاضبة :

ـ لا فائدة مع الصغيرة. الحال لا تَسُرّ.

ورفعت المنجل فسمعته وهو يقول ساخطاً :

ـ فلتصيبني اللعنة إذا كنت أفهم أمور النساء. إنها لم تلبث في بادىء الأمر أن وافقت دون حاجة إلى توسل أو رجاء. ولكن ها هي الآن لم تعد تريد أن تسمع شيئاً في موضوع زواجك منها.

فتوقف تنفسي، وأظن أنني شحبت. وليس ذلك من الندم على فقدان «مرجريت» ولكن تلك الأراضي، وتلك المزرعة، ها هو كل ذلك يضيع مني. كل أحلامي استحالت إلى تراب... ولم أستطيع إلا أن أغمغم قائلاً:

ـ وأي سبب قدمته لك؟
ـ إنها تؤكد أنك لا تحبها. لا تهتم يا صديقي إنك شاحب كالمشنوق.

وتناول العجوز ذراعي قائلاً:
ـ ربما تستطيع أن تقنعها وتعيدها لصوابها. إنني أنصحك بالذهاب إليها دون أن تضيع دقيقة واحدة.

كان قد انتابني شكٌ رهيب. وأخذت الطريق إلى المنزل بخطى سريعة، بينما كان العجوز يلهث في أثري ودخلت الدهليز مباشرة فصادفت مرجريت وهي تخرج من الحجرة المشتركة. فتظاهرتْ بأنها لم ترني. وتأهبت للانصراف دون أن تقول لي كلمة. ولكني أمسكت بذراعها وجذبتها إلى داخل

حجرتها وأغلقت الباب. وبلهجة جامدة، سألتني عن بغيتي فقلت:

- يجب أن أتحدث إليك.

فأجابت:

- إنني لا أرى شيئاً يمكن أن تقوله لي.

فملت عليها وسألتها:

- هل أنت التي جاءتني، مساء أمس، ووضعت ذراعيها حول عنقي؟

فواجهتني وفي عينها شعلة من الغضب وقد احمر وجهها قانياً وقالت وهي تضغط على فكيها.

- كيف لم تعرفني؟

- صفح الله عني، لقد ظننت أنك «لينا» الصغيرة، تلك الشيطانة، الوقحة.

فسألت في لهفة:

- صحيح؟ صحيح؟.

فأجبت في وقار:

- أقسم لك.

فسألتني وفي عينيها شك:

- ماذا بينك وبين «لينا»؟

فطمأنتها في الحال:

ـ أبداً! لقد كانت هذه المجنونة تلاحقني طوال الصيف، دون أن تلقى مني أدنى تشجيع. ولقد رأيت أنها تستحق درساً جيداً.

فقالت «مرجريت» وهي تبتسم في ظرف:

ـ أجل، كانت تستحق هذا الدرس.

ووضعت رأسها فوق صدري وتنهدت قائلة:

ـ إنني سعيدة للغاية، سعيدة للغاية...

ثم رفعت عينيها نحوي وسألتني بصوت ضعيف وجل:

ـ أتحبني إذن؟

هذا سؤال أخرق. كانت تمعن النظر إلي، كما لو كانت تريد أن تستشف أخفى أفكاري. ورأيت أنه ليس أمامي وسيلة للخروج من هذا المأزق.

فقلت متلعثماً والعرق يتصبب في ظهري:

ـ إنني لم أعرف نساء غيرك... إنني أكنُّ لك حباً كبيراً.

وتبع ذلك صمت طويل. أما أنا، فكنت أرتجف من الخشية، لأن الغنيمة كانت تستحق ذلك. وفي تلك الأثناء كانت اللحظات تمضي دون أن تتخذ «مرجريت» قرارها. وأخيراً أعلنت قائلة:

ـ مما لا شك فيه أنك تحبني. ثم أضافت بلهجة قاطعة، وهي تتعلق بي بذراعيها:

ـوإذا لم تكن تحبني الآن، فإن هذا سيحدث يوماً ما.
وجذبتها بين يدي وأنا مجنون من الفرحة، ورفعتها عن الأرض، ثم وضعتها في حذر وطبعت قبلة على فمها».

وصمت الشيخ. وغرق القس في أفكاره. ولم يكن يدرك السبب الذي راح الشيخ من أجله ينبش كل هذه الذكريات المعفرة. ومع كل فإنه لم يبعث في طلبه فقط لكن يروي له قصة زواجه. وكان يشعر بنوع من الإعجاب لهذا العجوز الجريء، القاسي عديم الشعور ولكنه شريف مع نفسه، لا يستطيع مهما كانت النتائج أن يتظاهر بشعور لا يحس به، وأن ـ ينطق بالكلمة التي يمكن أن تفتح له الطريق لكل ما يشتهيه في العالم.

ـ وأخيراً أصبحت سيد «جرينووتر» ومضت الأعوام. وكان زواجنا موفقاً. وتبين أن ـ «مرجريت» زوجة ممتازة، وشريكة مخلصة. ولم تقم بيننا أية سحابة... حتى ذلك اليوم الذي اعتقدت فيه «كاترين» انها تحبك. كانت زوجتي قد وافقت عليك من أول وهلة. وذات يوم، شرعت تحدثني في هذا الموضوع وتتوسل إلى أن أمنحك موافقتي، فأجبتها وقد أغاظني إلحاحها الشديد.

ـ الحب.. كلام فارغ!

كانت بالضبط نفس الكلمات التي نطقت بها قبل عشرين عاماً وأنا أظن أنني كنت أتحدث إلى «لينا».

فرمقتني زوجتي بنظرة تقطر ألماً.

ـ أكان هذا رأيك عندما جئت تطلبني من أبي؟

فتوقف تنفسي من الذهول، وهكذا لم تكن نسيتْ شيئاً.

ثم استطردتْ تقول:

ـ ربما لم أكن أنا التي كانت تهمك في ذلك الوقت، ربما كانت «جرينووتر» هي التي كانت تعجبك أكثر.

فانصرفت دون أن أجيبها. ولم تكن الأيام التالية أياماً بهيجة. كانت زوجتي تعبس في وجهي ولا تنفك تضغط على أسنانها. وكانت «كاترين» تبكي. وكان ذلك كله يمثل قمة السخرية. فلم يكن لدى «كاترين» أي سبب للشكوى. فبفضلي، كانت «جرينووتر» قد أصبحت أجمل ضيعة في سائر الإقطاعية. كنت قد قمت بتجفيف المستنقعات، وتمهيد الأرض المجاورة للمباني. وكنت أقتني خمسمائة خروف داخل الزريبة، وعشرين بقرة داخل الحظيرة، وعشرة جياد داخل الإسطبل، وخمسين دجاجة في خن الدجاج، وخمسة عشر خنزيراً في حظيرة الخنازير. ولم يكن هناك دين، ولا رهن. كانت كاترين هي التي سترث ذلك كله عندما تحين ساعتي؟ قصارى القول، لقد كنت أعمل من أجلها، من أجل

مستقبلها، وها هم يتهمونني بأنني سبب شقائها وأفسد حياتها. هيا إذن! إن فتاة لها مثل هذا الميراث لا يمكن أن تكون تعسة. هذا ما كنت أقوله لنفسي عندما كنت أتأمل مزارعي الواسعة، والمراعي التي كان العشب فيها يجف تحت الرياح.

كان القس ينصت حائراً. إن هذا العجوز الأناني الذي دمر حياة ابنته، ها هو ذا في اللحظة التي قد تغلق عليه فيها أبواب الليل الأبدي، يبدو عاجزاً عن إبداء أدنى ندم.

ـ ولم تُعدم كاترين من الخُطّاب، ولكنها كانت تصرفهم جميعاً. أما أنا فلم أكن أتدخل ولكن، عندما جاء «بُجورنسون»، نصحتها بقبوله زوجاً. إنه مزارع حسن ذكي موفق في عمله. كان من الممكن أن يصبحا زوجين رائعين. له هو، كنت أعهد بالمزرعة عن طيب خاطر. ولكن «كاترين» للأسف رفضت أن تطيعني . إن هذه ـ الفتاة عنيدة كالبغلة. هل تعرف ماذا قالت لي :

ـ إذا أجبرتني على الزواج منه، فسألقي بنفسي في النهر.

ولقد أذهل هذا التهديد زوجتي. وربما لم يكن سوى مظهر للإصرار، أو ربما كان رغبة في معاندتي. ومع كل، فقد كنت خائفاً، أنا أيضاً. إنها تشبهني إلى حد كبير، هذه الشيطانة، إنها لا تتنزل عن رأيها أبداً. وهذا ظاهر من الطريقة التي ظلت

بها مخلصة لك طوال كل تلك الأعوام. إنني أتساءل حقاً ما الذي يعجبها فيك. وأعترف أنني لم أدرك من ذلك شيئاً.

فقال في هدوء.

ـ فليباركها الرب على كل هذا الوفاء.

ـ على كل حال، إنك لم تتقدم قيد أنملة منذ عشر سنوات.

ـ فأجاب القس:

ـ إن الآلام الكبرى تترك الندبات، ولكنك لا تستطيع أن تفهم هذا.

ـ كلا بكل تأكيد. كل هذه المشاعر الجميلة ليست من مستواي. لم يتصور أحد إنني كنت أتألم أنا أيضاً. لم أكن أشكو أبداً، ولكنني أستطع أن أقول صراحة إن حياتي كانت قد أصبحت لا تطاق. وكان ذلك بسببك. فلولاك لظلت حياتنا سعيدة. ولتزوجت كاترين من «بجورنسون». آه! لقد كنت ألعنكما دائماً بلساني وبقلبي.

ودَمْدم القس وهو يحدق في المُزارع العجوز بنظرة صافية:

ـ إنني لا أبالي بلعناتك.

ـ إنك تعتبر نفسك قديساً!

ـ دعنا من المبالغة. لقد اجتهدت دائماً في أن أتصرف وفقاً لضميري.

ـ ما جدوى أن «نجتهد» عندما لا نتوصل إلى الحصول على ما نحب. أنا مثلاً لم أحاول قط أن أحارب طبيعتي الحقيقية. فهل تظن أن ما ترويه لهؤلاء الأغبياء المساكين ـ أقصد مريديك ـ هو انعكاس للحقيقة.

ـ نعم.

ـ فما قولك إذا لاحظت يوماً أن كل تعاليمك إنما هي قصص نساء طيِّبات لا تستند على أساس متين؟

فأردف القس وهو ينهض من فوق الكرسي:

ـ إننا نضيع وقتنا.

لم يكن يشعر بأية رغبة في مواصلة الحديث مع ذلك العجوز الزنديق الذي لم يقترب من المائدة المقدسة أبداً، وينهال بالسخريات اللازعة على الكنيسة المقدسة وتعاليمها.

وكان الشيخ يتفحصه بعين ساخرة.

ثم قال بلهجة آمرة قاطعة:

ـ أجلس.

ـ فسأله القس:

ـ لماذا تريد أن أبقى وأستمع إلى تجديفك؟

ـ حسن، حسن. ربما كنت تود أن أباركك لأنك قضيت على سعادة أسرتي. ولكن لنكمل. إنني لم أنته بعد من

حديثي، فأرجوك أن تنصت لي حتى النهاية.

ولما كان القس يخشى، إن هو عارضه، أن يزيد من تفاقم مرضه، فقد جلس ثانية على الرغم منه.

ـ وبعد ذلك، ماتت «مرجريت» فجأة، كما لا بد وأنك تذكر. لقد رأيتها تسقط أمامي، هنا، وعندما انحنيت عليها، كانت قد فارقت الحياة.

ولقد أقمت لها جنازة رائعة. وقام بدفنها قس الخورية المجاورة.

ولقد ظلَّ الناس يتصورون أنني لم أسكب عليها دمعة واحدة.

والحقيقة، إنني عندما رأيتها ميتة عند قدمي، سرى في جسدي شيء ما. ومنذ ذلك اليوم لم أعد ذلك الشخص الذي كنته قبل ذلك تماماً. وحينما أرقدوها على فراش الموت، ظللْت ساهراً عليها طوال الليل. وعند الفجر فقط رضيت أن أغادر الحجرة.

وبعد الجنازة، بدا المنزل في نظري فارغاً. ولقد انهلت على العمل كالمجنون. وكان يحدث لي في بعض الأحيان أن أنسى أن مرجريت ماتت. فعندما كنت أعود إلى المنزل، كنت أناديها بأعلى عقيرتي:

- «مرجريت» أين أنت؟
فتصل «كاترين» وهي تهرول مذعورة وتقول:
- آه، بابا، إنك تعلم جيداً أن أمي ماتت.

وعندئذٍ أدفع كاترين، وأدخل حجرة نومنا وأوصد الباب. لم أكن أدرك شيئاً من موقفي. وكما قلت لك لم أكن أعشق زوجتي. ولم أهتم قط بمعرفة ما إذا كانت جميلة أم لا. وعندما كان يسألني أحد عن لون عينيها، كنت أجد مشقة في الإجابة. كلا، لقد كنت أجهل معنى الحب.

وحاولت أن أخفف من شجني، ولكن ما الفائدة؟ لم أكن أفكر إلا في «مرجريت» بل لقد انتهى بي الأمر إلى إهمال عملي. وكنت أمكث راقداً مدعياً أني مريض، وكنت أعتكف في حجرتي، دون طعام أو شراب.

وبدأ الناس يرمقونني بنظرات غريبة. ونصحني بعضهم باستشارة أحد الأطباء ولم أكن أعبأ كثيراً بآرائهم... مدركاً أن أي طبيب لا يمكن أن يشفيني. وكان عزائي الوحيد هو أنه ما من أحد كان يخطر بباله نوع المرض الذي كنت أعانيه. وكان يحدث لي في لحظات الوحدة أن أجوب الدار كلها، هائماً من حجرة إلى حجرة. وكانت «مرجريت» تفعل ذلك، فقد كانت تحب أن تقوم بالتفتيش في المنزل لتتأكد أن كل شيء في مكانه. وكان يبدو لي في بعض الأحيان أن مرجريت ترافقني،

فكنت أسمع خطوات خفيفة بالقرب مني، أو بجواري، أو خلفي، وفي بعض الأحيان كان يبدو لي أنها تمر أمامي وكان ثوبها يحف بي عند مرورها. عندئذٍ كنت أجلس وأجول بعيني من حولي. فقد كنت دائماً أتمنى أن أمسك صورتها لحظة واحدة.

وفي الغالب، كانت تأتي «كاترين» قلقة بعض الشيء، وتسألني إذا كنت أبحث عن شيء ما، وكنت أجيبها بلهجة متقطعة:

ـ أنا؟ كلا. لا أبحث عن شيء. كل ما هنالك أنني أنظر لأتأكد أن كل شيء في مكانه.

إنني أريد أن أعرف إذا كنتِ سيدة بيت ممتازة مثل والدتك.

ولست أدري إذا كانت تصدقني أم لا. ومن المؤكد أن الناس بدأوا يوجهون إلى أنفسهم فيضاً من الأسئلة بشأن حالتي. كنت أرى ذلك في عيونهم، مع أنه ما من أحد منهم جرؤ على مصارحتي بالحديث.

كنت أجبر نفسي على البقاء في الحقول والعمل مع الآخرين منذ مطلع الشمس حتى مغيبها. ولكن العمل لم يعد يثير اهتمامي على الإطلاق. ولم تكن بي سوى لهفة واحدة

هي أن أعود، أن أعود إلى البيت. ولست أدري لماذا كان يبدو لي أنني بمجرد أن أعود إلى المنـزل سأجـد «مرجـريت» وفي غالب الأحيان كنت أعتكف طـوال اليوم في حجـرتي. وكنت أعلم تماماً أن العمال يستغلون ذلك وأن العلف لن يخزن في الوقت المطلوب، ولكن الأمر كان بالنسبة لي سيان.

وعندما كنت أتأكد تماماً أن أحداً لن يأتي ليزعجني، كنت أفتح الدولاب وأخرج منه مـلابس «مرجـريت» قطعـة قطعـة، وأضمها إلى خدي، وأداعبها برقة. وكنت أقول كلاماً لم يخطر ببالي أبداً في حياة «مرجريت». كلاماً كنت أحمر له خجلاً لو سمعه أحد. وكنت أبكي ولكن ذلك لم يكن يريحني».

ونظر القس ملياً إلى الشيخ:

ـ والآن لعلك تدرك ما عانيناه نحن، كاترين وأنا، طوال كل تلك السنين. فصاح المزارع بلهجة ازدراء:

ـ تقول إنك عانيت؟ ولكنك لم تفعل شيئاً منذ عشر سنوات من أجل تصحيح هذاالوضع.

فهمهم القس بطريقة آلية وهو بادي الذهول:

ـ ماذا كنت تريد مني أن أفعل؟ لقد كانت كاترين ترفض أن تتزوج ضدَّ رغبتك.

ـ أنت لست مِقـداماً، يـا صـديقي. كـلا، لن أقـدم لـك النصح، إنك لا تستحق ذلك. إن الحب الذي لا يجرؤ على

فعل شيء، الحب الذي يخاف، والذي يتوارى، هذا الحب فعلاً كلام فارغ. إنني على ثقة من أن أغلب الناس يشاركونني رأيي. إن الحب الحقيقي يرفع الجبال، إنه قوة لا يقف في سبيلها شيء، هذا هو رأيي. والآن، أنا على استعداد لأن أهبك «جرينووتر» ـ بدون ندم ـ وأهبك كل ما أملك مقابل أن أرى من جديد عزيزتي «مرجريت».

ومال القس على الشيخ، وصاح في خبل والشرر يتطاير من عينيه:

ـ هل غيرت رأيك؟ هل تريد فعلاً أن تعطيني «كاترين»؟

ـ كلا، أنا لم أغير رأيي. إنك لست أبداً، وأكررها، إنك لست أبداً الرجل الذي أتمناه صهراً لي. إنني لا أرجع عما سبق أن قلته. لقد تغيرت مشاعري فيما يتعلق بموضوعات أخرى، أما فيما يتصل بك أنت، فلقد كوَّنت رأيي. لا تعتقد أنك تثير إعجابي بوفائك الجميل. لقد كنت طوال حياتي أحتقر أولئك الذين يتخلون عن المعركة بمجرد أن تصادفهم العقبة. وبوسعي أن أخبرك أنني لو كنت أحب «مرجريت» عند ا طلبت يدها وتلقيتُ من والدها الرفض الذي تلقيتَه أنت مني، لما استطاعت قوة بشرية أن تفرق بيننا. ولما ظللت عشر سنوات جالساً على مؤخرتي في انتظار تطور الأحداث.

وعند سماع هذه الكلمات نهض القس قافزاً، وصاح بأعلى صوته.

ـ لقد بدأت أفهم. إنك تفضل أن تموت على ألا ترجع فيما قلته. ولكنك لن تجد الوقت الكافي لكي تسخر مني. انتظر قليلاً.

وبينما كان الباب يصطك خلف القس، تراقص شعاع بهيج في عيني الرجل الطيب الذي همهم من بين أسنانه:

«هيه حسن، كان لا بد له من الوقت لكي يفهم».

أما الفلاحون الذين كانوا يعملون في الحقل، بالقرب من المنزل، فقد رأوا القس يجتاز الباب وهو يضم كاترين بين ذراعيه ويرفعها إلى ظهر جواده، ثم يقفز على السرج خلفها وينطلق عادياً. ومن وراء ستائر حجرته، كان الشيخ يتابعهما بعينيه وهو يبتسم بكل تجاعيد وجهه.

## الســـاحرة

تأليـف : تاتوزو أيشيكاوا

إحساس ما كان ينتابني منذ فترة من الوقت، ومع أني لا أثق بسائر أحاسيسي، إلا أن هذا الإحساس كان يشقيني.

كـانت «مازاكـورينـو» صـديقتي، وهي فتـاة رقيقـة، كثيـرة الكلام، ذات بشرة صافية اللون، ناعمة الملمس أشبه بأوراق الورد. وكان ثمة شعور يلازمني وهو خوفي الشديد من أن أراها فجأة تنساب من بين أصابعي كحفنة من الـرمال. ولقـد أثبتت التجربة صـدق إحساسي هـذا: فلقد تـزوجت «مازا» دون أن تخبـرني،، من «كيجي كيامـا» وذلك حتى قبـل أن أعلم أنها تعرفه وأنه يعرفها.

وانقضى الخريف، وأقبل الشتاء، فتجمدت الشمس نفسها من شدة البرودة، وأصبحت الرياح محملة بكرات البَرَد. الشتاء يعـدّ فصلاً قاسياً بالنسبة للعـاطلين. كنت أرفع يـاقة معـطفي

البالي القديم وأهيم في شوارع طوكيو الضيقة أقتل الوقت.

كانت في جيبي بعض «اليِنّات»[1] التي حصلت عليها في مقابل كمية من دمي. لقد غرزت الممرضة الأمريكية أبرتها في ذراعي الهزيلة فسحبت منها ٢٥٠ سنتيمتراً مكعباً من الدم، بدون اكتراث وكأنها كانت تعد كوباً من عصير الطماطم. ولقد كافحت الدوار بأن أحللت كمية من «الساكي» النفاذ محل الدم الذي فقدته.

ثم أمضيت الليل هائماً على هوى الطرقات. وها هي طوكيو التي أحالتها الحرب منذ سنوات إلى رماد، قد أصبحت الآن مدينة مهووسة تزينها أنوار النيون المتنوعة، وتعاني من كثافة السكان. إنها أشبه شيء بجحيم لم يتمكن فيه الرجال والنساء الذين يشبهون البهائم من مواصلة حياتهم إلا بعد كفاح مرير. وكنت أجد في هذا الانحطاط نوعاً من السلوى، كما أشبعت غريزة الانتقام عن طريق بيع دمي ولقد كان خلل عقلي يدفع جسدي نفسه إلى اليأس، فكنت أهيم في حالة فراغ مادي ومعنوي في الوقت نفسه.

وذات يوم، توقفت إحدى السيارات بالقرب مني فجأة. وعندما التفتت رأيت «مازا كورينو» تخرج منها. ولقد ظننت في بادىء الأمر أن فقر الدم والدوار يمكران بي مرة أخرى. كانت

(١) جمع (ين) العملة اليابانية.

«مازا» ترتدي معطفاً من الفرو أميل إلى القصر، وكان جسدها النحيل، تحت أنوار النيون التي كانت تضيء الشارع، يعكس ألوان قوس قزح، وراحت وهي تدس ذراعها تحت إبطي تطلق ضحكة رزينة.

ـ وأخيراً، عثرت عليك! منذ شهور وأنا أبحث عنك. لقد غيرت مكانك، على ما أظن. .

كانت قد ضمَّنت صوتها نبرة ملاطفة، خفية بعض الشيء، جعلت الرعدة تسري في جسدي. ولقد تمنيت أن أهرب، فلم يكن في العالم إنسان لا أرغب في لقائه مثلها . وعندما تناولت يدي شعرت بعيني تفيضان بالدموع.

ـ كم أنت شاحب! هل أنت مريض؟ لماذا ترتعش هكذا؟

فأجبتها في تهكم وازدراء:

ـ لقد بعت دمي. إن المسئولين في المستشفى الأمريكي لا يشكون في جودة السلعة التي تسيل مني فاشتروها بألف «ين». والآن فإن دمائي لا بد وأنها تجري في عروق جندي أصيب في كوريا.

فقالت «مازا كورينا».

ـ هذا جميل! لقد كان في جسدك دماء أكثر من اللازم، وإن عملية سحب الدم سيكون من شأنها أن تخفض الضغط عندك. ولن تموت بسبب ذلك. إنني مدعوة إلى حفل راقص

ولست أرغب كثيراً في الذهاب إلى هناك.

فقلت لها:

ـ اذهبي بسرعة، فإنني أرغب في البقاء بمفردي.

فهمهمت وهي تضغط على ذراعي:

ـ لا تقل لي ذلك، ستجعلني أبكي.

لو كانت صادقة، فلما هجرتني لكي تتزوج من «كيجي كياما»؟ ولكن المناقشة كانت ضرباً من العبث: كانت أشبه بالسائل، ليس لها شكل معين، لذلك فقد كانت تجيد التكيف مع الإطار والظروف. وكانت السعادة، بالنسبة لها، أمراً يسيراً.

ودخلنا أحد المطاعم وطلبنا كأسين من «العصير»، وكنت وأنا أشرب، أنصت إلى «مازا» وهي تثرثر بصوتها العذب.

ـ أنت غاضب، أليس كذلك؟ ولكن ذلك كان خارجاً عن إرادتي. دعني أشرح لك. إن «كياما» واحد من أصدقائك، وعلى ذلك، فأنت تعلم مكان عمله. إنه يعمل لحساب مخابرات جيش الاحتلال. ولقد كان له في الماضي أصدقاء من حزب اليسار المنحرف، الذين يبغضونه في الوقت الحاضر. ولكن هذا بالذات ما جعلني أقرر الزواج منه، لأن لي ثأراً عند السوفييت. ففي نهاية الحرب قتل جنود الجيش الأحمر أهلي في منشوريا. وأنا أريد الثأر. ولقد سافر «كياما»

إلى موسكو أيام كان منضماً للشيوعيين، وهو يتحدث الروسية بطلاقة، ولديه معلومات كثيرة، عما يجري في روسيا. ومن هنا كانت فائدته للمخابرات. ولنفس السبب أيضاً كنت على استعداد لعمل أي شيء من أجل «كياما». إن الأمريكيين، كما تعلم، هم الذين سيثأرون لي. هل فهمت؟.

فأجبت:

- كلا. إن المرء لا يشيد بيتاً على مبادىء من هذا القبيل. هل تريدين أن تقولي إنه إذا ترك «كياما» المخابرات، فإنك ستنفصلين عنه؟

- بكل تأكيد.

فأخذت في الضحك قائلاً:

- وحينئذٍ ماذا تصنعين؟

- أصبح زوجك. فأنت الشخص الذي أحبه. ألا تفهم؟ ألا تريد أن تصدقني؟

من البديهي أن الزواج يجب أن يكون هدفاً في حد ذاته. ولكن «مازا» كانت من تلكم النساء اللائي يجتزن في غير مشقة حدود الذوق العام، ويتجاهلن بمسلكهن القيود التي يفرضها الواجب، والأخلاق والحياء. لقد كان يبدو لها زواجها من «كياما» وسيلة للثأر من روسيا. ولم تكن ترى في نظرتها للأمور شيئاً يخالف الصواب أو يشذ عن المألوف.

وبالإضافة إلى ذلك، وجدتني عاجزاً عن توجيه اللوم إلى نزقها وعدم وفائها. لقد كانت وعودها وحججها أشبه في تأثيرها بجرعة حبيبة، ففي تلك الليلة أصبحت جباناً يرتضي أن ينتظر دوره عندما يتم انفصال «مازاكو رينو». «أنت الشخص الذي أحبه»، هكذا كانت تقول لي، وكان هذا يرد إلى الأمل، كان يكفي أن أنتظر: فمن المؤكد أنها ستعود لي.

ولكن، مع مرور الزمن، دفعني هذا الأمل نفسه إلى اليأس. فإنني لم أكف عن التفكير في «مازا»، ولقد فقدت في هذا التفكير كرامتي، وثقتي بنفسي، والتحكم في مشاعري. فكنت أغلق نوافذ حجرتي المظلمة، الشبيهة بالزنزانة، وأقضي أيامي متمدداً فوق فراشي، لا أدري ماذا أصنع بجسدي المسكين. ولقد انتهى بي الأمر إلى اتخاذ قرار بعدم رؤية «مازا» بعد ذلك، لأنها ستكون سبباً في هلاكي. وحتى مع افتراضي أنها ستعود لي، لم أكن واثقاً من قدرتي على الاحتفاظ بها. ففي يوم ما، ستنساب من يدي مثل الماء.

في تلك الأثناء جاءتني «مازا» دون إخطار سابق: فهل كان ذلك من أجل سعادتي أم من أجل شقائي؟ كانت ترتدي معطفاً رمادياً من معاطف الربيع وتمسك بيدها باقة من القرنفل. وكان كتفاها يبدوان أكثر نحولاً. وكانت ثمة تجاويف تحت وجنتيها. وكانت عيناها الواسعتان تتأملان وجهي بنظرة ملهوفة.

فبادرت بسؤالها قائلاً:
ـ ماذا حدث؟ لقد هزلت.
فأكدت وفي صوتها ليونة ملاطفة أعرفها جيداً:
ـ لم يحدث شيء.
ـ ولكنك تبدين مريضة.
ـ أنا لست مريضة. إنني حامل.
ـ صحيح؟ مبروك.
ـ متشكرة.
ـ آه... ولكن متى تنوين أن تتركي «كياما»؟
فقالت وهي تشيح بوجهها:
ـ الأمل ضعيف في تركه. فكما تعرف، إنه يحبني. إنه يقول إنه يحبني بجنون. وذات يوم، عندما حدثته في موضوع انفصالنا، أمسكني من نحري. وهو يزعم أنه يفضل أن يقتلني على أن يفقدني. وأنا لا أحب أن أموت. والآن، ماذا تريد مني أن أصنع؟

عندئذٍ فهمت. لقد غُرر بي. فلم تكن «مازا» تنوي صراحة أن تهجر زوجها. ولم يمنعها هذا من أن تأتيني في حجرتي لتستثيرني وتحاول أن تعكر حياتي. فقد كانت تجد في هذا العمل نوعاً من اللذة. كانت لعبة قاسية. وحدثت نفسي قائلاً «إن اليأس سينقذني». وكشخص يدمن المورفين ويتمسك مستميتاً بالجرعة ولا يعود إلى صوابه إلا إذا وجد نفسه محروماً

منها، رأيت أنني لن أعود إلى صوابي إلا بعد أن أفقد «مازا».

فقلت:

- إنني أرى أنه لم يعد لدي ما أقوله لك. وابتداء من الآن، فإنني سأبتعد عنك. حاولي «يا مازا» أن تكوني أماً صالحة وكرسي بقية أيامك لزوجك «كياما».

فقالت وهي تبتسم:

- أوه، كلا، لن أصبح أماً صالحة. فغداً سأدخل أحد المستشفيات حيث أقضي أسبوعاً، وسينتهي كل شيء.

وانفصلت عن «مازاكورينو». إن جسدها الغض الساحر، وصوتها الضعيف الرخيم، ومائعية شخصيتها بأسرها، كل ذلك لم يعد يشقيني. فقد استعدت طاقتي، وزرت أصدقائي لكي أطلب إليهم أن يجدوا لي عملاً. فوجدت مكاناً عند مهندس معماري. وكنت أقضي نهاري أمام لوحة الرسم في تنفيذ تصميمات عمارة كبيرة. وكانت طوكيو تبعث من رمادها، وكان سكانها يزدادون كل عام بمقدار أربعمائة وخمسين ألف نسمة. كانت المدينة في حاجة إلى أراضٍ ومنازل. فكان لا بد من تشييد عمارات كثيرة الطوابق لإقامة سكانها الذين لا يكفون عن الزيادة.

وأقبل الصيف، ثم أعقبه الخريف. وكنت لا أزال أواصل عملي في التصميمات، دون أن أهتم بشيء آخر. وكنت قد

استعدت استقلالي آخر الأمر. وكنت أجهل ما كانت تعمله «مازاكورنيو» بل لم أكن أعلم أين كانت تقيم. وكانت حياتي تسير نحو الاستقرار، وكنت أحدث نفسي قائلاً: «في العام القادم، سأتزوج من فتاة عاقلة، وسأقوم بتشييد بيت صغير لنا».

وذات يوم، تلقيت مكالمة هاتفية في مكتبي، فانقبض قلبي عندما تعرفت على الصوت الذي كان يهتف باسمي: كان صوت شيطان. فإن شيكسبير يقول إن الشيطان عندما يريد أن يغوي إنساناً فإنه يتخذ صورة ملاك. كان الصوت الذي أتاني في الهاتف وجعل قلبي يقفز صوتاً رقيقاً عذباً كصوت الملاك، كان هذا الصوت هو صوت «مازاكورينو».

ـ أنت لطيف هذه الأيام. أنا أعرف ذلك. إننا لم نلتق منذ زمن طويل، ولكنك لم تفارق عيني. سرعان ما سأترك «كياما»، ! هذا صحيح، وسأصبح زوجتك. كيف كيف؟ . . . نعم، «كياما» يحبني، ولكنك أنت الشخص الذي أحبه. لماذا لا تريد أن تصدقني؟ . . . لا بد أن أراك في ظرف عدة أيام.

ـ ولكن أنا لا أريد أن أراك.

ـ أنت مجنون؟ . . . إلى اللقاء يا حبيبي!

واستولت عليَّ «مازا» من جديد، ولم يعد باستطاعتي أن أفلت منها. ففي النهار كانت تسيطر على أفكاري، وكنت

أحلم بها في الليل. وفي غمرة يأسي هذا، بدأت أشرب الساكي «وأنام فوق أحد مقاعد الحديقة. وفقدت سيطرتي على نفسي تماماً، فغرقت في حالة من الفجور والفسق دامت عشرة أيام. وفي هذه النكسة الأخيرة أضعت تصميم العمارة ففقدت عملي.

ولما كنت عاجزاً عن الحصول على عمل آخر، فقد شعرت باقتراب الشتاء. وعلى ذلك فقد عدت إلى المستشفى الأمريكي. وبعت قليلاً من دمي واستبدلت بالنقود التي أعطوني إياها مشروب «الساكي». وكان يلوح لي أنني لا أملك سوى وسيلة واحدة للإفلات من «مازا»، وهي أن أفقد نفسي كلية، وأن أنحدر من مستوى الإنسان إلى مستوى الحيوان. ولكن الواقع هو أن العذاب الذي كنت أعانيه لم يكن سوى امتداد للتأثير الخفي القوي الذي كانت تمارسه على هذه المرأة.

وترديت في هذا الحضيض أكثر فأكثر. وأصابني البرد وبدأت أعاني من صداع عنيف. وذات أمسية باردة، كنت متمدداً وأنا جائع محموم، فوق فراشي الحقير أنصت إلى مطر الشارع البارد، وإذا بمن يطرق الباب طرقاً رقيقاً.

ودخلت «مازا». وكانت متدثرة في معطفها الفرو وتحمل

حقيبة من الورق مليئة بالفاكهة . وأما وجهها النضير الذي اعتنت بزينته فكان يبتسم ويهش للقائي .

ودون أن أنبث بكلمة، أخذتها بين ذراعي على صدري. لقد حصرتها مثل البهيمة، عازماً هذه المرة، ألا أتركها، حتى ولو كان ذلك مقابل إنقاذ روحي، ولكن «مازا» لم تكن من تلكم الفتيات اللائي يثرن بسهولة، لقد كانت لا تزال غضة رقيقة عنيدة. وعلى الرغم من عناقي واندفاعي فقد كانت تحتفظ بابتسامتها وسيطرتها على مشاعرها.

وهمهمت قائلة :

ـ انتظر، انتظر قليلًا، أرجوك. انتظر حتى بعد الغد.

ـ وماذا سيحدث لو انتظرت إلى ذلك الحين؟

ـ سأصبح زوجتك.

ـ ولماذا بعد الغد؟

ـ هناك احتمالات لأن يحدث شيء مهم غداً. هذا صحيح. ومن الأفضل أن نظل اليوم في هدوء. سأقابلك بعد غد في مكان ما. اتفقنا؟

ولكني لم أكن أنصت إليها. كنت أسمع المطر البارد الذي كان يتساقط في الخارج بينما كنت أحتفظ «بمازا» بين ذراعي، في حجرتي الصغيرة المظلمة. ونسيت كرامتي، واعتدادي بنفسي، نسيت كل شيء.

وفي اليوم التالي، كانت جريدة المساء تدخر لي مفاجأة. فقد ألقي القبض على «كيجي كياما» بواسطة البوليس الحربي لقوات الحلفاء بتهمة التجسس. فبينما كان يعمل في المخابرات الغربية، قام بتوصيل أسرار قوات الاحتلال الأمريكية إلى السوفييت. أما اسم «مازا» فلم يأت ذكره، لكنني شعرت بأنهم قبضوا عليها هي الأخرى.

ومع كل ففي المساء الذي حدد موعداً للقائنا، وجدت «مازا» تنتظرني داخل المطعم الذي كان من المفروض أن نلتقي فيه. وفي تلك الحجرة الجافلة بالأنوار كانت تبدو سعيدة.

فبادرتها قائلاً:

- ما هذه الأخبار!

فسألتني وهي تضحك من كل قلبها:

- هل فوجئت بذلك؟

فأردفت قائلاً:

- إذن فقد كنت على علم بذلك أول أمس؟

- طبعاً، ما دمت أنا التي فعلت ذلك.

- ماذا تقصدين؟

- - سأشرح لك. عندما قتل الجيش الأحمر أهلي في منشوريا، عدت إلى هنا، بمفردي وعشت ستة شهور مع

عمي. وقد كان عمي هذا رئيساً لإحدى فرق شرطة العاصمة حتى هذه الأيام الأخيرة.

ـ تقصدين أنه طلب منك أن . . .

ـ دعني أتكلم إذن!

هكذا قاطعتني في رقة.

ـ قبل الحرب، كان «كياما» شيوعياً، كما تعرف. لهذا السبب كان مكتب الأمن التابع لقوات الحلفاء يشك في أمره. فطلب الحلفاء من شرطة العاصمة أن تقوم بالتحريات في هذا الشأن، ولكن التحريات تمت بعناية، وفي سرية تامة، فلم يشك هو في ذلك.

وذات يوم، عرفني عمي على ضابط عظيم يعمل في المخابرات ودعاني هذا لحضور حفل صغير في بيته. . . وهناك قابلت «كياما». وبالطبع كانت مقابلتنا قد أعدت مقدماً. فبالنسبة لي، كان كشف أحد الجواسيس السوفييت، وسيلة لجعل الروس يدفعون ثمن موت أهلي فقبلت المهمة التي كلفوني بها. وكان «كياما» سهل القياد. وكان يجهل كل شيء عما يحاك حوله ولم يشك في أمري على الإطلاق. وقبل أن ينقضي شهر على مقابلتنا الأولى، طلب أن يتزوجني ولكنه حتى ذلك الحين لم يعهد إليّ بسره.

ـ ولكنك في النهاية تمكنت من كشفه، إليس كذلك؟

ـ لقد كلفني هذا الأمر عاماً كاملاً. ولكنه حتى النهاية، ظل يجهل كل شيء عن الدور الذي قمت به في هذا الموضوع. ففي صباح الأمس، في الوقت الذي كانوا يهمون بأخذه، التفت ناحيتي وهو بادي الحزن وقال لي. «إنني حزين، يا مازا». سامحيني. يجب أن تنسيني وأن تعيشي كما يحلو لك «كنت مبتئسة من أجله ولكني لم أقل شيئاً، فقد رأيت أن من الأفضل ألا يعلم شيئاً. . والآن، لقد أوفيت بعهدي، أليس كذلك؟ فسنتزوج، هذه المرة؟

فوضعت في هدوء فنجان الشاي الذي كان بيدي فوق المائدة. إن المشكلات العالمية والصراع بين روسيا والولايات المتحدة الأمريكية قد جعل من هذه الفتاة شيطاناً. ونهضت من فوق الكرسي. إنني لو غفرت لها، لما أصبح هناك إيمان ممكن بالعواطف الإنسانية. إذن لفقدت إيماني بالحب والصراحة إلى الأبد. فألقيت بها أرضاً فصاحت، وبدأ الناس من حولنا يتركون موائدهم. وبعد لحظة وصلت الشرطة وألقي القبض علي.

ها أنذا قد نجوت الآن. وعندما قادني رجال الشرطة لم أشعر بضميري يؤنبني على الإطلاق.

تحضير المونتاج والبلاكات
مؤسسة التجهيزات الطباعية